دولة بني صالح في تامسنا

بالمغرب الأقصى

(١٢٥ ـ ٤٥٥ هـ / ٧٤٣ ـ ١٠٦٣ م)

دكتور

رجب محمد عبد الحليم

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهرة



دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ ش سيف الدين المهراني ـ الفجالة
ت : ٩٠٤٦٩٦


بسم الله الرحمن الرحيم

دولة بنى صالح فى تامسنا

بالمغرب الأقصى

(١٢٥ – ٤٥٥ هـ / ٧٤٣ – ١٠٦٣ م)

دكتور
رجب محمد عبد الحليم

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
معهد البحوث والدراسات الافريقية
جامعة القاهرة

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ ش سيف الدين المهرانى – الفجالة
ت : ٩٠٤٦٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نعرض بالحديث فى هذا الكتاب الى دولة صغيرة قامت فى أحد أقاليم بلاد المغرب الأقصى على يد أحد قواد البربر البارزين ، وهو طريف بن مالك . وطريف هذا كان أحد قواد موسى بن نصير ، شارك معه فى فتح بلاد المغرب الأقصى ثم شارك أيضا فى فتح بلاد الأندلس. واستطاع طريف أن يضع يده بعد انتهاء فتح هذه البلاد بأكثر من ربع قرن من الزمن على منطقة هامة فى قلب بلاد المغرب الأقصى تعرف « باقليم تامسنا » وأقام فيها مملكة له ولذريته من بعده . وقد ورثه فى حكمها أولا ابنه صالح الذى يعتبر هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة ، ولذلك نسبت اليه وحملت اسمه ، خاصة وأن الحكم بعده استقر فى ذريته وحده دون باقى اخوته .

وقد امتد العمر بهذه الدولة الى أكثر من ثلاثة قرون وكانت أسبق فى الميلاد من أى دولة عربية أو بربرية قامت فى بلاد المغرب الأقصى مستقلة عن دولة الخلافة الأموية أو العباسية ، اذ أن ميلاد هذه الدولة كان فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م على يد طريف بن مالك ، واستمر بنو صالح بن طريف وذريته يحكمونها واحدا اثر الآخر فى شكل نظام حكم وراثى يتوارثه الأبناء عن الآباء حتى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م حينما دهمتهم جيوش أعدائهم من الصنهاجيين حيث انتصرت عليهم وقتلت ملكهم ، وكان لذلك أثره فى تاريخ هذه الدولة فلم نعد نسمع عن ملوكهم الا حينما جاء المرابطون وقتلوا آخر هؤلاء الملوك وهو أبو حفص عبد الله حوالى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م .

ورغم طول الفترة التى حكم فيها بنو صالح منطقة تامسنا ، ورغم الدور السياسى الذى لعبوه فى تاريخ هذه المنطقة وفى تاريخ المغرب

الأقصى بصـفة عامة ، فان كتب التاريخ القديمة أهملتهم ولم يتناولهم بالذكر الا اثنـان من الجغرافيين المسـلمين ، أحـدهما ابن حـوقل (ت ٣٦٧ هـ / ١٩٧٧ م) ، وثانيهما هو البكرى (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م). ومع أنهما كانا معاصرين لفترة من عمر هـذه الدولة ، الا أنهما تحدثا عنها وعن ملوكها فى صفحات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، ولم يزد من أتى بعدهما من المؤرخين شيئا ذا بال .

فقد روى ابن عذارى (قرن ٧ هـ / ١٣ م) ما حكاه البكرى فى شىء من الاختصار ، أما ابن خلدون فقـد استقى رواية البكرى كاملة واستكملها بحديثه عن نهاية دولة بنى صالح على يد الصنهاجيين والزناتيين والمرابطين . وان كان ابن خلدون فى هـذا المقـام لم يعطنا تفصيلات كثيرة وواضحة حتى جاء الحسن الوزان فى بداية القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد وأعطانا رواية فريدة تبين كيفية نهاية هذه الدولة على يد المرابطين .

فالمعلومات عن هذه الدولة شحيحة وقليـلة ، ولذلك فان كتب التاريخ الحديثة والمعاصرة لم تشر اليها حتى مجرد اشـارة ربما لهذا السبب ، وربما استخفافا بشـأنها فهى دولة أو دويلة صغيرة ، وربما نتيجة لمـا ذكره ابن حوقل والبكرى عن المذهب الذى اتبعته هـذه الدولة ، مما جعل المؤرخين قدامى ومحدثين يحجمون احجاما تاما عن ذكرها والتعرض لها فيما عـدا ما ذكره ابن عذارى وابن خلدون نقلا عن ابن حوقل والبكرى .

ذلك أن هذين الجغرافيين المسلمين ذكرا أن هذه الدولة اتبعت مذهبـا اعتبراه دينا جديدا ووصماه ووصما أصحابه من بنى صـالح ودولتهم بالكفر والضـلالة ، مما جعل المؤرخين على مدار عصور التاريخ الاسلامى ينفرون من هذه الدولة فأهملوها الاهمال كله .

وعلى ذلك فان أمامنا فى حـديثنا عن هـذه الدولة موضـوعان رئيسيان : الموضوع الأول هو الدور السـياسى الذى قام به بنو صالح الذين تزعموا هـذه الدولة وقادوها ، والموضوع الثانى هـو الديانة أو المذهب الذى اتبعوه ، وهل كان خروجا على الاسـلام أم أنه كان أحـد المذاهب الاسلامية المتطرفة التى شهدتها هذه البلاد ؟

وقبل أن نناقش هذين الموضوعين لا بد أولا أن نعرض بالحديث للاطار الجغرافى أو المكان الذى قامت فيـه هذه الدولة ، أين يقـع ، ما هى حدوده ، وما أهمية موقعه ، ومن هم سـكانه ، وكيف تم فتحه على يد العرب وكيف اعتنق هؤلاء السكان الاسلام ؟

ذلك أن اقليم تامسنا الذى قامت فيه هذه الدولة ارتبط بالاسلام منذ أن وصل الاسلام الى هذه البلاد ، وقام أهله بدور سياسى هـام لا يمكن اغفاله ، ففى ذكره اسـتكمال لجهود البربر فى اقامة الدول المستقلة التى كانت دولة بنى صـالح كما أشرنا تقف على رأسـها ، كما أن الحديث عن هذه الدولة وعن مذهبها الدينى الذى اعتنقته فيـه اماطة للثام الذى حجب حقيقة هذا المذهب عن الناس كل هذه العصور الطويلة من الزمن .

المؤلف

(١)

الاطار الجغرافى لدولة بنى صالح فى اقليم تامسنا

تمتع اقليم تامسـنا بموقـع جغرافى هام ، وحتى نعرف هـذا الموقع ، ونعرف أهميته لا بد أن نشـير أولا الى الأقاليم التى انقسمت اليها بلاد المغرب الأقصى لنرى موقع اقليم تامسـنا من هذه الأقاليم .

وفى هذا الصدد نرى أن ابن خرداذبة (ت حوالى ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) قد قسـم المناطق السهلية التى تقع بين جبال أطلس والساحل المطل على المحيط الأطلسى من بلاد المغرب الأقصى الى أربع مناطـق عرضية متتالية من الشـمال الى الجنوب ، أو الى أربعة أقاليم كبرى هى اقليم طنجة ، وخلفـه على السـاحل يقع اقليم السوس الأدنى ثم منطقة قـدرها ابن خرداذبة بمسـيرة نيف وعشرين يوما وتشـتمل على اقليم دكالة واقليم حاحا واقليم مراكش ، يليها جنوب الاقليم الرابع وهو السوس الأقصى[١] .

ويقول الاصطخرى (ت قبل ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) عن الاقليم الأول وهو طنجـة أنه « كورة عظيمة تحيـط بمـدن وقرى وبواد للبربر كثيرة ، ومدينتها العظمى التى هى القصبة تسمى فاس »[٢] ، ثم أشار الى السوس الأقصى وقال ان السوس الأقصى هو اسم المدينة إلا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب وتحيف بها طوائف من البربر[٣] ، ولم يشر الى السوس الأدنى ، مما يدل على أنه أدمج هذا الاقليم فى اقليم طنجة الذى جعله يمتـد ليشمل مدينـة فاس حتى انه سـمى

---

(١) بن خرداذبة : المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغـداد ، بدون تاريخ ، ص ٨٩

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، وزارة الثقافة والتراث القومى ، سلسلة تراثنا ، مصر ، سنة ١٩٦١ ص٢٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤

الأدارسة الذين بنوا هذه المدينة فى عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م[٤] واتخذوها عاصمة لهم باسم ملوك طنجة[٥] .

وقد جرى على نهجه من أتى بعده من الجغرافيين حيث أشار المقدسى (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) الى كورة فاس وسماها السوس الأدنى وجعلها تشتمل على المدن والنواحى التى تقع فى طنجة واقليم فاس ، ثم أشار بعد ذلك الى السوس الأقصى[٦] .

فاذا أخذنا بتقسيم ابن خرداذبة وهو أقدم الجغرافيين الذين تحدثوا عن هذه المنطقة من بلاد المغرب ، فان تامسنا هى الاقليم الثانى الذى سماه كل من البلاذرى وابن خرداذبة باسم بلاد السوس الأدنى[٧] ، وتابعهما بعد ذلك ببضع قرون ابن عذارى الذى عاش فى القرن

---

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٧

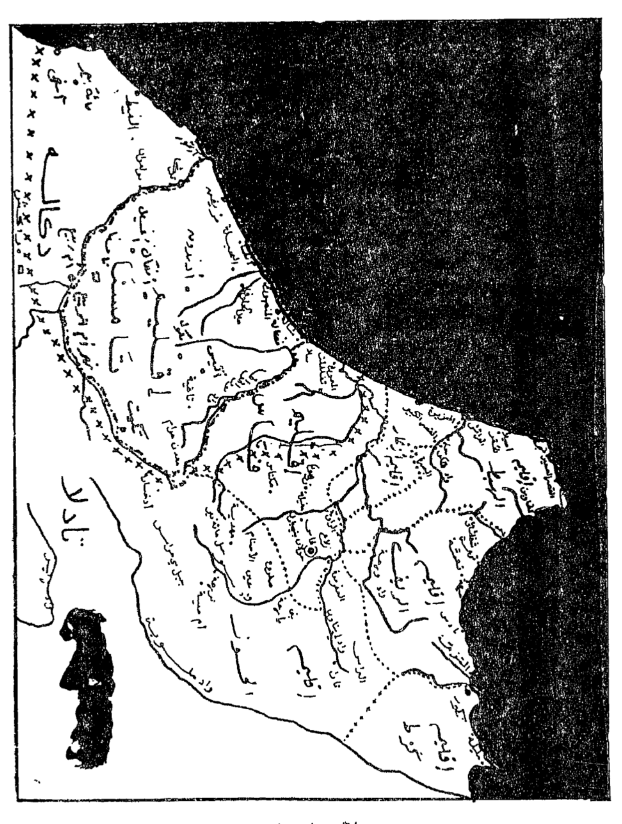
(٥) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٦) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، سنة ١٩٨٧ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥

يبدو أن التقسيم الذى اشار اليه كل من الاصطخرى والمقدسى هو التقسيم الذى صار معمولا به حتى زمن الحسن الوزان الذى قسم بلاد المغرب الأقصى الى مملكتين هما مملكة فاس ومملكة مراكش ويفصل بينهما وادى أم الربيع الذى ينبع من جبال اطلس ويصب فى المحيط الأطلسى . وكان السوس عنده هو النصف الجنوبى من مملكة فاس ، والسوس الأقصى هو النصف الجنوبى من مملكة مراكش . وهكذا اصبحت الأقاليم الأربعة التى انقسمت اليها المناطق السهلية التى تطل على المحيط الأطلسى والتى تبدأ من طنجة حتى أقصى الجنوب اقليمين اثنين فقط سماها الحسن الوزان باسم مملكتين وهى مملكة فاس ومملكة مراكش ، وكان اقليم تامسنا فى أيامه أحد أقاليم مملكة فاس السبعة.

انظر ، الحسن الوزان : وصف افريقيا ، جزءان فى مجلد ، ترجمة محمد حجى ، محمد الأخضر ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الرباط ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ ، ص ٢٢٦ ، ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص ٨٩



ـ×ـ×ـ×ـ حـدود اقليم تامسنا .

××××× حدود دولة بنى صالح فى أقصى اتساعها .

المصدر : الحسن الوزان : وصف افريقيا جـ ١ ص ١٨٦ (بتصرف).

السابع للهجرة حيث ذكر أن « تامسنا يقال لها أيضا بلاد السوس الأدنى »[٨] واعتبرها مملكة مستقلة ضمن الممالك الثلاث المستقلة التى قسم اليها بلاد المغرب الأقصى وهى مملكة فاس حيث يحكم الأدارسة ، ومملكة تامسنا حيث يحكم بنو صالح بن طريف ، ومملكة سجلماسة حيث يحكم بنو واسول الصفريون[٩] .

وتتيجة للتغييرات السياسية التى حدثت بعد ذلك فقد أصبحت تامسنا أو بلاد السوس الأدنى جزءا من مملكة فاس فيما تلى ذلك من عصور[١٠] ، وكانت حدودها فى تلك العصور وكذلك فى العصور الأولى التى ظهرت فيها دولة بنى صالح واضحة . ذلك أنها كانت تنحصر بين نهر أبى الرقراق فى الشمال ونهر أم الربيع فى الجنوب ، وبين المحيط الأطلسى فى الغرب وجبال الأطلس فى الشرق[١١] وذلك بالمخالفة لوضع هذه الجهات التى بينها الحسن الوزان وكان غير دقيق فى وضعها[١٢] . وقد قدر الحسن الوزان طول هذه الرقعة من الأرض بثمانين ميلا أو حوالى ١٢٦ كيلو مترا بين نهرى أبى الرقراق وأم الربيع، وقدر عرضها بستين ميلا أو حوالى ٩٦ كيلو مترا بين جبال الأطلس والمحيط[١٣] .

وقد جعل ابن حوقل والحسن الوزان بداية هذا الاقليم مدينة سلا التى تقع على ساحل المحيط الأطلسى عند مصب نهر أبى الرقراق ، ونهايته عند مدينة أزمور التى تقع جنوب مصب نهر أم الربيع[١٤] .

---

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٨٣ ، ج ١ ص ٥ ، ٢١٦

(٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦

(١٠) الحسن الوزان ، نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٤

(١١) انظر الخريطة ص ١١

(١٢) وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٩٤

(١٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٤

(١٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، سنة ١٩٧٩ ، ص ٨٢ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٩٤

ويبدو أن اقليم تامسنا كان فى العصور الأولى للاسلام وفى عهد بنى صالح أوسع من ذلك بكثير ، ربما بسبب قوتهم ونفوذهم السياسى الذى امتد جنوبا حتى مدينة آسفى[١٥] ، وشمالا حتى وادى بهت[١٦] ، وشرقا حتى جبال درن التى تعرف عادة باسم جبال الأطلس[١٧] .

ومهما كان امتداد هذا الاقليم اتساعا أو انكماشا ، ومهما صغرت مساحته أو كبرت ، فان موقعه على هذا النحو يدل على مدى أهميته البالغة ، وعلى أن من يسيطر عليه يستطيع أن يتحكم فى بقية الأقاليم المحيطة به ، فهو فى الواقع يعتبر أهم اقليم فى بلاد المغرب الأقصى من حيث الموقع ، كما أنه يمثل القلب بالنسبة لهذه البلاد ، ولذلك وصفه أحد الجغرافيين القدامى بقوله انه « فى الحقيقة زهرة هذه الناحية كلها »[١٨] .

ولذلك وقعت فيه أو بالقرب منه عواصم المغرب الأقصى المشهورة . فمدينة فاس التى بناها الأدارسة فى عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م واتخذوها عاصمة لهم[١٩] كانت تقع بالقرب منه من ناحية الشمال ، ومدينة مراكش التى بناها المرابطون فى عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وكانت عاصمة دولتهم[٢٠] كانت تقع أيضا بالقرب منه من ناحية الجنوب ، ومدينة

---

(١٥) ابن خلدون : تاريخه ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(١٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ، سنة ١٩١١ ، ص ١٣٦

(١٧) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥

(١٨) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٩٤

(١٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٣

(٢٠) المراكشى : تاريخ الأندلس المسمى بالمعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، مصر ، الطبعة الأولى سنة ١٩١٤ ، ص ٢٠٣ ، السلاوى : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، القاهرة سنة ١٨٩٤ جـ ١ ص ١٠٧

الرباط التى بدأ الموحدون فى بنائها عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م وكانت عاصمة لهم[٣١] ، كانت تقع فى نفس اقليم تامسـنا فى الجزء الشمالى منه ، مما يدل على الموقع الاستراتيجى الهام الذى ميز هـذا الاقليم عن غيره من أقاليم بلاد المغرب الأقصى •

ومع أهمية اقليم تامسـنا فقد سـكنه العديد من قبائل البربر وخاصـة مصمودة حيث يقول ابن عـذارى أن بلاد تامسـنا هى بلاد المصـامدة[٢٢] • وكان من أشـهر قبائل المصامدة التى سكنت تامسنا قبيلة برغواطة[٢٣] ، كما سـكنته أيضا قبائل من زناته[٢٤] وصنهاجة وهوارة[٢٥] ومطماطة[٢٦] • وكانت الزعامة على هـذه القبائل فى تامسنا لبرغواطة[٢٧] • وكانت هـذه القبـائل تدين بالوثنيـة والمجوسـية واليهودية والنصرانية[٢٨] ، وسرعان ما تحولت الى الاسلام بعـد فتح العرب لهذا الاقليم • فكيف تم هذا الفتح وكيف تحول أهل هـذا الاقليم الى الاسـلام ؟ والاجابة عن هذين السـؤالين سـوف تفيـدنا كثيرا عند مناقشـة المذهب الذى اتبعته الأسرة الحاكمة البرغواطيـة واتبعه أيضا كثير من أهل تامسـنا •

---

(٢١) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ، تطوان سـنة ١٩٥٨ ، ص ٧٢ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٦

(٢٣) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٣ ، ص ٥٠٠ ، ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٨٢ ، البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤٠ ، ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٧ ، ٢١٠

(٢٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٢٥) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣٧

(٢٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٦٦

(٢٧) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

(٢٨) البكرى : نفس المصـدر ، ص ١٦٠ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٢ ، ١١٦ ، الحسـن الوزان : نفس المصـدر ، جـ ١ ص ٦٧ ، الجزنائى : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، الجزائر سـنة ١٩٢٢ ، ص ١٠

(٢)

فتح بلاد تامسنا وتحول اهلها الى الاسلام

كان أول لقاء لبلاد تامسنا مع العرب والاسلام عند قدوم الصحابى الجليل عقبة بن نافع الفهرى الى هذه البلاد فى عام ٦٢ هـ / ٦٨١م • فقد ذكر البلاذرى أن عقبة غزا السوس الأدنى الذى يقع خلف طنجة[١] ، وسبقت الاشارة الى أن السوس الأدنى هو بلاد تامسنا[٢] • وقد صال عقبة وجال فى هذه البلاد « لا يعرض له أحد ولا يقاتله »[٣] ، ولم يعرف المصامدة غيره[٤] ، وكان المصامدة يشكلون معظم سكان هذه المنطقة كما سبق القول •

وقد تمكن عقبة من هزيمتهم ومطاردتهم حتى درعة[٥] ، ووصل الى السوس الأقصى وقاتل مسوفة من أهل اللثام التى تقع بلادها وراء هذا السوس • ولكن فتح هذه البلاد بصفة عامة لم يتم على يد عقبة ، اذ سرعان ما عاد أدراجه متخذا طريقه الى القيروان حيث تعرض له البربر فى الطريق عند تهودة وانقضوا عليه وأحاطوا به وقتلوه فى عام ٦٣ هـ / ٦٨٢ م لأسباب لا مجال لذكرها[٦] •

وقد تم فتح تامسنا وكل بلاد المغرب الأقصى على يد قائد آخر هو

(١) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٢٦
(٢) انظر ، ص ١٣
(٣) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٢٦
(٤) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٢
(٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، سنة ١٩٦١ ، ص ٣٨
(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ليدن ، سنة ١٩٢٠ ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٨٦ ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ م ، ص ٩٠ — ٩١ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩

موسى بن نصير ، وذلك فى عهد الوليد بن عبد الملك ، حيث تمكن هذا القائد من الزحف على طنجة فى عام ٨٩ هـ / ٧٠٨ م ، وهو أول من نزلها من القواد واختط فيها للمسلمين ودان له بربرها من البتر والبرانس بالطاعة ، وانتهت خيله الى السوس الأدنى (تامسنا) فهزم سكانها من البربر المصامدة وسبى بعضهم وأخذ رهائنهم ودانوا له بالطاعة ، وولى عليهم واليا أحسن السيرة فيهم وأخذ صدقاتهم وأموال زكاتهم ، ثم عزله عنها وولاها طارق بن زياد بالاضافة الى طنجة ، وانصرف موسى عائدا الى القيروان[٧] ، وأوكل مهمة استكمال فتح بقية بلاد المغرب الأقصى الى ابنه وقواده ، فتمكنوا من القيام بهذه المهمة وفتحوا درعة وصحراء تافيلالت والسوس الأقصى[٨] ، ودانت كل هذه البلاد لموسى بالطاعة ولم تستعص عليه الا مدينة سبتة لمناعتها ووصول الامدادات اليها من أسبانيا القوطية عن طريق البحر[٩] .

ومع هذه الفتوحات التى بدأت بعقبة بن نافع الفهرى وانتهت بموسى بن نصير ، بدأ الاسلام ينتشر فى بلاد تامسنا والمغرب الأقصى بصفة عامة . ذلك أن هذين القائدين وغيرهما من قواد المسلمين لم يكن يهمهم الا نشر الاسلام والدعوة اليه قبل أى اعتبار آخر ، فلم يكن الفتح غرضا فى حد ذاته ، وانما كان وسيلة لازالة العقبات التى كانت تعترض طريق الدعوة ، ولذلك كان الناس يدعون أولا الى الاسلام ثم الى دفع الجزية ، فاذا رفضوا كان لا بد من قتالهم .

وقد اتبع عقبة بن نافع الفهرى هذه السياسة[١٠] ودعمها بانشائه المساجد فى البلاد التى كان يفتحها ، اذ كان لا يترك مدينة فتحها

---

(٧) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، البلاذرى : نفس المصدر ، ص٢٢٨ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص١٨٧ — ١٨٨

(٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨٧

(٩) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٤٦ — ٤٧

(١٠) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٨

أو اقليما وصل اليه الا وترك فيه مسجدا بناه قبل مغادرته لهذا الاقليم أو لتلك المدينة . والمثال على ذلك مدينة نفيس التى كان أكثر أهلها من مصمودة ، فقد فتحها وبنى فيها مسجدا كان موجودا حتى عصر البكري[١١]، كما أنه بنى مسجدا آخر فى مدينة إيجلى بالسوس[١٢]، ومسجدا ثالثا بمدينة درعة ، ورابعا بالسوس الأقصى[١٣] ، وترك بعض أصحابه يعلمون البربر القرآن والاسلام ، منهم شاكر الذى بنى رباطا حمل اسمه فصار يعرف باسم رباط شاكر حتى اليوم . وقد انتشر الاسلام بين المصامدة الذين كانوا يكونون أغلبية سكان تامسنا نتيجة لهذه السياسة حتى قال ابن عذارى « ان أكثرهم أسلموا طوعا على يديه »[١٤] .

وقد اتبع موسى بن نصير نفس سياسة عقبة فى نشر الاسلام فى بلاد تامسنا والمغرب الأقصى بصفة عامة ، واتبع أسلوبا جديدا فى جذب البربر الى العرب والاسلام ، فجند منهم الكثير فى جيشه ، واتخذ منهم موظفين فى ادارة البلاد ، مما دفع كثيرا منهم الى اعتناق الاسلام . يضاف الى ذلك أنه كلف قواده وجنده بالقيام بمهمة الدعوة الى الاسلام بين البربر . ويذكر الرقيق القيروانى كما يذكر ابن عذارى فى هذا الصدد أنه ترك سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الاسلام ، وأمر العرب قبل مغادرته طنجة والسوس الأدنى « أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين »[١٥] .

وقد استمر مولاه طارق بن زياد الذى تركه موسى فى حكم طنجة وما والاها من بلاد السوس الأدنى فى اتباع هذه السياسة منذ أن تولى

---

(١١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٦٠ .
(١٢) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧
(١٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨
(١٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢
(١٥) الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب ، تونس ، بدون تاريخ ، ص ٦٩ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢

حكمها فى عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م حتى عام ٩٢هـ / ٧١٠ م ، وهو العام الذى دخل فيــه الأندلس فاتحا لها بمن معه من البربر الذين بلغ عددهم اثنى عشر ألفا[١٦] والذين كان معظمهم بطبيعة الحــال من البلاد التى كانت تحت حكم طارق بن زياد ، مما يدل على انتشار الاسلام بين بربر السوس الأدنى (تامسنا) ، ويدل على نجاح موسى بن نصير فى نشر الاسلام بين بربر المغرب الأقصى النجاح كله .

ويذكر ابن عذارى أنه فى هذا التاريخ ، أى فى عهد موسى بن نصير « تم اســلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المســاجد التى كان بناها المشركون الى القبلة ، وجعلوا المنابر فى مساجد الجماعات ، وفيها نصب مسجد أغمات هيــلانة »[١٧] التى تقــع فى أقاصى بلاد المغرب الأقصى .

وهكذا سارت الدعوة الاســلامية جنبــا الى جنب مع الفتــح الاســلامى ، وهكذا أصبح البربر من قادة الفتوحات الاســلامية ومن جنودها كالعرب ســواء بســواء ، وكان فتح الأندلس وقيــام البربر المســلمين بأوفر أعبائه عامــلا من عوامل مزج العرب بالبربر فى رباط واحد ، بعد أن صاروا اخوة فى الدين لا فرق بينهم فى شيء[١٨] .

وقد تدعمت حركة انتشار الاسلام وازدادت عمقا فى عهد من أتى بعــد ذلك من الخلفــاء والحكام والولاة ، وخاصــة فى عهد عمر بن عبد العزيز بحيث لم يبدأ القرن الثانى للهجرة الا وهــذه البلاد قــد أصبحت بلادا اســلامية خالصــة ، وكان الاســلام فيها أسرع فى الانتشار منه فى مصر رغم سهولة فتحها وصــعوبة فتح بلاد المغرب ،

---

(١٦) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس (منتخب من كتاب الروض المعطار) القاهرة سنة ١٩٣٧ ، ص ٩ ، مجهول : خبار مجموعة : ص ١٧

(١٧) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣

(١٨) محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربى ، دار الفتح والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ ، ج ٢ ص ١٦٦

ولعل ذلك يرجع الى ظروف عديدة لا مجال للحديث عنها[١٩] ، ولكن كان من الواجب أن نشير الى جهود عمر بن عبد العزيز فى هذا المجال .

فقد اختار هذا الخليفة الداعية ولاته على هذه البلاد وغيرها من التقاة الصلحاء[٢٠] المشهود لهم بالنزاهة والاستقامة والاخلاص للدولة وللاســلام والعمل على نشره ، فكانوا دعاة قبــل أن يكونوا حكاما أو ولاة ، وكانت افريقية وبلاد المغرب فى حاجة الى مثل هذا النــوع من الحكام ، وكان والى عمر بن عبد العزيز على هــذه البلاد وهــو اسماعيل بن عبيد الله[٢١] واليــا حسن السيرة وافر الحكمة مخلصــا فى الدعــوة الى الاســلام ، وبمجرد توليتــه فى المحرم من عــام ١٠٠ هـ / ٧١٨ م أخــذ يدعو البربر الى الاســلام حتى أسلم بقيــة البربر على يديه[٢٢] ، « ولم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحــد الا أســلم »[٢٣] .

وكان عمر بن عبد العزيز يدعم هــذا العمل بارســال الكتب الى البربر يدعوهم فيها الى الاســلام ، وكان اسماعيل يقوم بقراءتها عليهم فى مختلف النواحى[٢٤] ، وأتبع عمر هــذا العمل بارســال عشرة فقهاء من التابعين للغرض نفســه ، من أشهرهم أبو الجهم عبــد الرحمن بن

---

(١٩) عن هذه الظروف ، انظر ، حسن محمود : الاســلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ص ١٤١ — ١٤٧

(٢٠) احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٠

(٢١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٣ ويسمى هذا الوالى عند البلاذرى ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ باسم اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهــاجر مولى بنى مخزوم .

(٢٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٣ ، البلاذرى : نفس المصــدر ، ٢٢٩ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٨

(٢٣) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٣

(٢٤) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٢٩

نافع ، وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي ، وأبو عبد الرحمن الجبلي ، واسماعيل بن عبيد الله الأنصاري المعروف بتاجر الله ، وموهب بن حي المعافري ، وحيان بن أبي جبلة القرشي ، وأبو تمامة بكر بن سوادة الجذامي ، وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير ، وعبيد الله بن يزيد المعافري ، بالاضافة الى الوالي نفسه(٢٥) .

وقد انساب هؤلاء التابعون الدعاة بين البربر يدعونهم الى الاسلام وكانوا قدوة صالحة ومعلمين مخلصين بارعين(٢٦) ، أقاموا المساجد وجعلوها مدارس للاسلام يقصدها البربر من كافة أقاليمهم حيث كانوا يأخذون عن هؤلاء التابعين ثم يعودون الى بلادهم وقبائلهم لمتابعة الرسالة فيتولون وظائف الامامة والقضاء ويعملون بدورهم على نشر الاسلام وثقافته العربية(٢٧)

وبفضل جهود هؤلاء الدعاة من البربر المسلمين وجهود هؤلاء التابعين وغيرهم من دعاة العرب ، تعلم المغاربة أصول الاسلام فقرأوا القرآن وعرفوا اللغة العربية ، اذ كان أكثر أهل المغرب حتى ذلك الوقت لا يعرفون الحلال من الحرام ، وكانت الخمر حلالا عندهم حتى وصل هؤلاء التابعون والدعاة فبينوا تحريمها(٢٨) .

وقد يقول قائل اذا كانت الدعوة الى الاسلام في هذه البلاد قديمة منذ عهد عقبة بن نافع فلماذا قاوم البربر العرب الذين حملوا اليهم دعوة هذا الدين ؟ والاجابة على ذلك تتمثل في أن البربر لم يعادوا

---

(٢٥) ابن عذاري : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٨ ، احمد شلبي : نفس المرجع ، جـ ٤ ص ١٣٠ ، محمود شيت خطاب : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ١٦٧

(٢٦) احمد شلبي : نفس المرجع ، جـ ٤ ص ١٣٠

(٢٧) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٤٧

(٢٨) ابن عذاري : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٨ ، محمود شيت خطاب : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ١٦٨

الاسلام في أول الأمر ولم يقاوموه تلك المقاومة العنيفة التي استمرت حتى زمن موسى بن نصير الذي فتح بلاد المغرب الأقصى قرب نهاية الثمانينات من القرن الأول للهجرة الا لجهلهم بحقيقة هذا الدين وعدم احاطتهم بمحاسنه ومزاياه[٣٩] .

ولقد فطن لهذا الأمر الخلفاء والولاة من العرب بعد حين ، فرتبوا لهم الفقهاء والقراء يلقنونهم ويبصرونهم بالاسلام فلما عرفوا كهنه واتتبهوا لمزاياه وعرفوا حقيقته أصبحوا من أكبر دعاته وأعظم أنصاره حتى انهم كما قلنا هم الذين فتحوا الأندلس وسهلوا طريقها للعرب ، وهم الذين اقتحموا مجاهل افريقيا وحملوا الاسلام وثقافته الدينية الى ما يقع خلفهم من بلاد السودان كما هو معروف[٣٠] ، بعد أن غلب الاسلام عليهم وعلى بلادهم[٣١] ، وأصبحوا جميعا مسلمين منذ ولاية اسماعيل بن عبيد الله[٣٢] ، ودانت هذه البلاد من برقة الى السوس للعرب[٣٣] ، وصار بعض الولاة يرسلون جيوشهم الى بلاد السودان لدعوة أهلها الى الاسلام مثل عبيد الله بن الحبحاب الذي كان واليا على افريقية والمغرب في الفترة من ربيع الآخر عام ١١٦ هـ الى جمادى الأولى ١٢٣ هـ (مايو ٧٣٤ — ابريل ٧٤١ م)[٣٤] .

ورغم انتشار الاسلام على هذا النحو في بلاد المغرب الأقصى ومنها اقليم تامسنا بطبيعة الحال ، الا أنه فيما يبدو كان للبيئة الطبيعية والجغرافية أثرها في بقاء بعض الديانات السابقة على الاسلام في

(٢٩) محمود شيت خطاب : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ١٧٥

(٣٠) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣١) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٢٩

(٣٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٨٨

(٣٣) احمد شلبى : نفس المرجع ، جـ ٤ ص ١٣١

(٣٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ص ٢١٧ ، البلاذرى : نفس المصدر ص ٢٢٩

هــذه البلاد ، مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ، وهى الديانات التى كان يدين بهــا البربر قبــل وصول دعوة الاسلام اليهم[٣٥] . فقــد كانت المسيحية واليهودية تنتشران بين بعض البربر فى المناطق الساحلية والسهلية فى المغرب الأقصى ، أما داخلية البــلاد التى تكثر فيها الشعاب الجبلية والهضاب العديدة والطبيعة الجغرافية المعقدة ، فقد كانت الكثرة الكثيرة فيها من السكان على الوثنية[٣٦] .

ولذلك يبدو أن المقصود بالعبارات التى وردت عنــد المؤرخين المسلمين القدامى والتى تقول باســلام جميع البربر والتى أشرت اليهــا لا تقصد الا هؤلاء البربر الوثنيين الذين كانوا هم الغالبية بالنسبة الى اخوانهم من البربر الذين كانوا يعتنقون النصرانية واليهودية ، لأنه من المعروف أن النصرانية لم تنتشر الا فى المدن الساحلية والسهل الساحلى الذى كان يسيطر عليه الحكام الرومان والبيزنطيون ، أما داخلية البلاد فلم ينتشر فيها هذا الدين لأن النفوذ البيزنطى لم يتسرب اليها ، وظــل الأهالى على حالتهم الأولى يعبدون الأوثان والأصنام والنار كالمجوس تماما[٣٧] ، وهؤلاء هم الذين قصدهم المؤرخون المسلمون وقالوا عنهم انهم اعتنقوا الاسلام جميعا ، اذ أن عقيدتهم الوثنية لم تستطع الصمود أمام الدين الاسلامى الوافد فى قوته وعنفوانه[٣٨] .

ومعنى ذلك أن غالبية السكان من البربر اعتنقت الاسلام وظهر ذلك واضحا منذ بداية القرن الثــانى للهجرة ، أمــا أقليتهم من اليهود والنصارى فقد ظلوا على دينهم القديم . والدليل على ذلك أن بعض المؤرخين يشيرون الى وجود بقــايا للمسيحية واليهودية فى بلاد المغرب

---

(٣٥) انظر ص ١٥

(٣٦) حسن محمود : نفس المرجع ص ١٤٢

(٣٧) المرجع السابق ، ص ١٤١

(٣٨) المرجع السابق ، ص ١٤٤

الأقصى فى عصر دولة الأدارسة الذين تولوا حكم هذه البلاد منذ عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، أى فى الربع الأخير من القرن الثانى للهجرة .

وفى ذلك يقول ابن خلدون أن أول أمراء الأدارسة ، وهو ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (١٧٢ — ١٧٧ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٣ م) قام بعد أن استتب له الأمر فى بلاد المغرب الأقصى بالزحف الى « البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوة[٣٩] ، وبهلوانة[٤٠] ومديونة ومازار ، وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلا ، وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية، فأسلموا على يديه طوعا وكرها وهدم معاملتهم وحصونهم »[٤١] .

ومعنى ذلك أن اسلام أهل تامسنا تم فى عهد هذا الأمير الادريسى، وكذلك تم اسلام أهل منطقة فاس المجاورة لها فى عهد ابنه ادريس الثانى (١٧٧ — ٢١٣ هـ / ٧٨٣ — ٨٢٨ م) الذى قام بنشر الاسلام بين المجوس واليهود والنصارى الذين كانوا يقيمون فى المنطقة التى بنى فيها مدينة فاس ، اذ كان « موضع فاس لبنى بوغش وبنى الخير من زواغة ، وكان فى بنى بوغش مجوس ويهود ونصارى موضع شيبوبة منها بيت نار لمجوسهم ، وأسلموا كلهم على يده ، وكانت بينهم فتن فبعث للاصلاح بينهم كاتبه أبا الحسن عبد الملك بن مالك الخزرجى ، ثم جاء الى فاس وشرع فى بنائها »[٤٢] .

وبعد أن بنيت هذه المدينة فى عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م صارت قلعة العروبة والاسلام فى بلاد المغرب الأقصى حيث قام الأدارسة منها بحركة

---

(٣٩) فندلاوة عند الادريسى . انظر : نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٤٦

(٤٠) بهلول عند الادريسى . انظر : نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٤٦

(٤١) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٢

(٤٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٣

جهاد مقدس بقصد اتمام نشر الاسلام فى البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية بين قبائل المغرب[٤٣] . ومنذ ذلك الحين غلب الاسلام نهائيا على هذه البلاد وكتب له الفوز التام على الوثنية والنصرانية واليهودية ، وانتشرت الثقافة العربية الاسلامية بين الناس ، وصارت العربية لسانهم .

أما من نأى بنفسه عن مخالطة العرب والاتصال بهم واعتزل فى بادية أو شعاب جبلية أو فى أماكن كانت لهم وحدهم لا يشاركهم فى سكناها غيرهم من العرب ، فقد ظلوا لا يستخدمون الا اللغة البربرية وظلوا على هذا الحال حتى عصر الحسن الوزان الذى أشار الى أن أهل مدينة مراكش وبعض نواحيها لا يستعمل أهلها الا هذه اللغة[٤٤] ، وأن قليلا من غمارة وهوارة كانوا يتكلمون البربرية ، وان كان معظمهم يتكلمون العربية الا أنها عربية رديئة[٤٥] . بينما كان سكان جميع المدن الواقعة على شاطىء البحر المتوسط والمحيط الأطلسى وفى السهول الممتدة الى جبال الأطلس ، يتكلمون لغة عربية فصيحة[٤٦] .

أما سكان تامسنا بالذات فانهم وحتى عصر الحسن الوزان أى النصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد فانهم كانوا « يتكلمون اللغة الافريقية ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم للعرب وعلاقاتهم معهم »[٤٧] .

---

(٤٣) الجزنائى : نفس المصدر ، ص ٩ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٠ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، دار احياء التراث العربى ، الطبعة السابعة ١٩٦٤ ، جـ ٢ ص ٢٢٦ ، محمد بن عبد القادر الجزائرى : تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، دار اليقظة العربية ، الطبعة الثانية ١٩٦٤ ، ص ٤٥ — ٤٧ ، حسن محمود نفس المرجع ص ١٥٠

(٤٤) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٠

(٤٥) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٩

(٤٦) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٠

(٤٧) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٦٦

واللغة الافريقية التى يقصدها الحسن الوزان هى اللغة التى يطلق عليها ــ وكما يقول ــ اسم (أوال آمزيغ) ، أى الكلام النبيل ، والتى يسميها العرب البربرية . وهى لغــة أفريقية أصيلة مختلفة عن غيرهـا بين اللغــات وتشتمل على عدد من المفردات العربية التى تسربت اليهـا فى الغالب بعد أن جاء العرب الى هذه البلاد وفتحوها[٤٨] .

ويبدو أن الصراع بين العرب والبربر الذى شهده القرن الأول أثناء الفتح ، والصراع الذى شهده القرن الثانى أثناء الصدام بين دولة الخلافة وبين الحركات الخارجية عليها من صفرية وأباضية وغيرها ، وقيام دول بربرية مثل دولة المرابطين والموحدين وبنى مرين ، قد ساعد على بقــاء اللغــة البربرية بين كثير من سكان بلاد المغرب الأقصى [٤٩] ، وظـل لهذه اللغــة وجود حتى وقتنا الحــاضر ولم يحد منها ويجعلها لغة أقلية الا عاملان ، أولاهما توالى الهجرات العربية مثل هجرة بنى هلال وغيرهم من العرب الذين تسربوا الى بلاد المغرب الأقصى ، أو دفع بهم الحكام اليهــا ، مثل عرب بنى معقل وبنى صبيح وغيرهم [٥٠] .

أما العامل الثانى فهو قيام دول فى حكم بلاد المغرب الأقصى فى العصر الحديث من أصل عربى بحت مثل الســعديين ثم العلويين الذين ما زالوا يحكمون هذه البلاد حتى الآن[٥١] . ولذلك فانه فى العصور الوسطى كانت العربية والبربرية تسودان هذه البلاد لدرجة أن الادريسى الذى عاش فى القرن السادس للهجرة / الثانى عشر للميلاد لاحظ ذلك وقال ان القبائل التى تسكن حول مدينه فاس رغم أنها من البربر الا أنهــا تتكلم بالعربية مثل بنى يوسف ، وفندلاوة ، وبهلول ، وزواوة ، ومجاصة،

---

(٤٨) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٩

(٤٩) محمود شتيت خطاب : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ١٧٥

(٥٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ١١٥ ، ٢٠٤ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨

(٥١) محمود شتيت خطاب : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ١٧٥

وغياثة ، وسلالحون[٥٢] . ومعنى ذلك أن كلامهم بالعربية كان شيئا مثيرا للانتباه والملاحظة ، مما جعل الادريسي يقول « ولكنهم يتكلمون بالعربية »[٥٣] ، أى أن كلامهم بالعربية لم يكن أمرا عاديا .

وبالنسبة لبلاد تامسنا فقد سبقت الاشارة الى أنهم كانوا يتكلمون بالبربرية ويتحدث بعضهم بالعربية لمجاورتهم للعرب ، وظلوا على هذا النحو حتى عصر الحسن الوزان الذى لاحظ هذا الأمر ، خاصة وأنه درس فى فاس بعد أن انتقلت أسرته المغربية الأصل اليها قبيل سقوط غرناطة فى يد الأسبان عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م[٥٤] .

والدليل على صدق قوله هو ما ذكره المؤرخون والجغرافيون الذين عاشوا قبله بقرون عديدة مثل ابن حوقل والبكرى الذين قالوا ان أهل تامسنا كانوا يتكلمون بالبربرية . يفهم ذلك من قول ابن حوقل أنه مما سهل على ملكهم صالح بن عبد الله [٥٥] دعوة أهل تامسنا الى معتقده والانضمام الى حركته أنه كان « بربرى الأصل مغربى المولد مضطلعا بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم ... فعمل لهم كلاما رتبه بلغتهم »[٥٦] .

ودليل آخر يستفاد من كلام البكرى الذى قال ان رسول أحد ملوك بنى صالح فى تامسنا الى المستنصر بالله الخليفة الأموى بالأندلس فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، استصحب معه مترجما يبين كلامه باللغة العربية[٥٧] ، كما أشار البكرى أيضا الى استخدام البربر فى بلاد تامسنا

---

(٥٢) نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٤٦

(٥٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٥٤) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٦ ، ٧

(٥٥) صالح بن عبد الله اسمه الصحيح هو صالح بن طريف كما ورد عند البكرى .
انظر : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٥

(٥٦) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٨٢

(٥٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٤ — ١٣٥

الى استخدام عبارات دينية باللغة البربرية كقولهم ابسمن ياكش(٥٨) ، أى باسم الله ، ومقر باكش(٥٩) ، أى الله أكبر أو الكبير الله ، وايحن ياكش ، ومعناها الله أحد أو الواحد الله ، وردام ياكش ومعناها لا أحد مثل الله(٦٠) . هذا بخلاف ما ذكره البكرى من كلمات وعبارات مترجمة الى اللغة العربية من أول سورة أيوب التى قال أنها كانت أول سور كتابهم(٦١) .

ومعنى ذلك أن دولة بنى صالح بن طريف فى بلاد تامسنا كانت دولة بربرية خالصة ، أقامتها قبيلة بربرية هى برغواطة ، وكانت اللغة السائدة فيها هى اللغة البربرية ، وكان لهـا مذهبها الدينى الخاص بهـا ، فكيف قامت هذه الدولة ، وكيف تم ظهورها ، وما هى الظروف التى ساعدت على قيامها ؟

وتسهيلا للاجابة عن هذه التساؤلات يمكن أن نقسم المراحل التى مرت بهـا هذه الدولة الى ثلاث مراحل ، هى مرحلة النشأة والتأسيس ، ثم مرحلة التوسع والازدهار ، وأخيرا مرحلة السقوط الذى تم على فترات استغرقت أكثر من قرن من الزمان .

---

(٥٨) ايسمن باكش عند ابن عذارى . انظر ، البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٧

(٥٩) مقر باكش عند ابن عذارى . انظر ، البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٧

(٦٠) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٩

(٦١) المصدر السابق ، ص ١٤٠

(٣)

نشـأة دولة بنى صالح فى تامسنا

تنسب دولة بني صالح بن طريف في تامسنا بالمغرب الأقصى الى صـالح رغم أن واضع الأساس لهذه الدولة هو طريف نفســه ، ولكن البربر قدموا ابنه صالحا دون باقي اخوته الثلاثة[١] ، فبقى الحكم فى ذريته وحده دون هؤلاء الاخوة ولذلك نسبت الدولة اليه .

أما والده طريف الذى مهد له الأمر ويسر له سبيل الوصول الى حكم تامسنا ، فقد اختلف المؤرخون فى أصله وفى اسمه ، ولكن الشـهير أن اسمه طريف بن مالك الملقب بأبى زرعة[٢] . أما أصله فهناك رواية تقول بأنه عربى من قبيلة معافر أو نخع اليمنية[٣] . وقد بنيت هذه الرواية على أساس أنه من المستبعد أن يبعث موسى بن نصير الطليعة الكشفية الأولى التى مهدت لفتح الأندلس تحت قيادة رجل غير عربى ، رغم أن هذه الرواية استندت على نصوص تدل على أن طريفا كان مولى من موالى البربر[٤] .

أما الرواية الثانية فقد استندت الى نصوص أندلسية جديدة وقالت

---

(١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥

(٢) طريف بن مالك يسمى عند ابن حوقل (صورة الأرض ص ٨٢) باسم عبد الله ، وهو عند صاحب اخبار مجموعة (ص ١٦) طريف الملقب بابى زرعة ، وعند البكرى (ص ١٣٥) يسمى طريفا فقط ولم يشر الى اسم ابيه ، وتابعه ابن عذارى على ذلك (انظر : البيان المغرب جـ ١ ص٢٢٣)، وهـو عنـــد ابن خلدون (تاريخـه جـ ٦ ص ٢٠٧) طريف أبو صالح المطغرى وسـماه الحميرى فى كتـابه صـفة جزيرة الأندلس المـأخوذ من كتـــابه الروض المعطـــار (ص ٨) باســم طـريف بن ملـوك المعافرى ويكنى ابا زرعة ، وذكره المقرى فى كتابه نفح الطيب (جـ ١ ص ١٠٦) بانه طريف البربرى مولى موسى بن نصير ، كما ذكره (جـ ١ ص ١٠٨) على انه طريف بن مالك النخعى ، وايضــا (جـ ١ ص ١١٨) طريف المكنى ابـا زرعـة .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧٠

(٤) المرجع السـابق ، ص ٧٠ هامش (٢) ، ص ٧١

انه مسلم من البربر ومولى من موالى موسى بن نصير[٥] . وهناك رواية ثالثة انفرد بها البكرى تقول بأنه ليس من البربر وليس من العرب ، انما هو يهودى الأصل من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحاق[٦] .

والحقيقة أن الرجل كان مسلما ومولى من موالى البربر . يتبين ذلك من قول ابن حوقل وهو أقدم المصادر التى ذكرت ابنه صالحا فقال عنه أنه « بربرى الأصل مغربى المولد »[٧] وهى عبارة تدل على أصل الابن وبالتالى تدل على أصل أبيه . وقد أشار الى أصله البربرى أيضا ابن خلدون[٨] ، وصاحب أخبار مجموعة[٩] ، والمصادر والمراجع الأندلسية المختلفة[١٠] ، ولا تدل نسبته الى قبيلة معافر على أنه معافرى، ذلك لأنه كان مولى من موالى هذه القبيلة وليس من أبنائها الأحرار الخلص ، وهذا أمر مشهور فى تاريخ القبائل العربية التى ساهمت فى الفتوحات الأسلامية وانضم اليها رجال من البربر وصاروا موالى لها اما نتيجة للأسر ، أو بالاختيار الحر ، والدليل على ذلك أن الحميرى يجعله مولى من موالى البربر وينسبه فى نفس الوقت الى معافر[١١] .

---

(٥) مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر امرائها ، تحقيق ابراهيم الأبيارى ، بيروت ١٩٨١ ، المقرى جـ ١ ص ١٠٦ ، ١١٨ ، عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الاسلامى حتى سقوط غرناطة ، دار العلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، ص ٤٥ ، شكيب ارسلان : الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، دار مكتبة الحياة، بيروت ، بدون تاريخ ، جـ ١ ص ٢٠٠

(٦) المغرب فى أمر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٥

(٧) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٨) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢١٠

(٩) مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٦

(١٠) انظر : الحميرى : نفس المصدر ، ص ٨ ، ١٢٧ ، المقرى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٤٥ هامش (٢) ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٧٠ هامش (٢)

(١١) صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨

ذلك أن بعض البربر كانوا يفضلون أن يلحقوا أنفسهم باحدى القبائل العربية وينضمون تحت لوائها بالولاء ، فينتسبون اليها ، وقد حدث هذا الأمر مع صاحبنا طريف بن مالك هذا ، وحدث مع غيره من الموالى وحتى من العرب الذين أقاموا الدول . والمثال على ذلك هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذى أقام دولة الأباضية عام ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م فى طرابلس وافريقية ، فلم يكن هذا الرجل من معافر مثله فى ذلك مثل طريف بن مالك ، ولكنه كان مولى من موالى هذه القبيلة[١٢] .

أما استبعاد أن يرسل موسى بن نصير مولى من البربر على رأس حملة استكشافية تمهد لفتح الأندلس ، بدعوى أنه لا بد أن يكون ذلك القائد من العرب أنفسهم ، فهو أمر ليس بالضرورى وليس هناك ما يمنع أن يكون هذا القائد من البربر ، والدليل على ذلك أن قائد الحملة الرئيسية التى تولت عبء فتح الأندلس وهو طارق بن زياد كان بربرى الأصل وكان أيضا مولى لموسى بن نصير[١٣] .

كما أنه كان من الضرورى أن يتكون الزحف الأول على بلاد الأندلس — سواء كان استطلاعيا أو غزوا — من قواد وجند من البربر ، أولا ، لأنهم كانوا أدرى بهذه البلاد بعكس العرب الذين لم يكونوا يعرفون عنها شيئا بينما كان البربر يعرفون عنها الكثير نتيجة لمجاورتهم لها حيث أن المغرب والأندلس يؤلفان فى الواقع وحدة جغرافية واحدة ، ولذلك آثر موسى أن تكون هذه الحملة الاستطلاعية من البربر[١٤] ، وكان من الأنسب حينئذ أن يكون قائد هذه الحملة من البربر أيضا وهو طريف بن مالك . تماما مثلما حدث فى حملة طارق بن زياد ،

---

(١٢) أبو زكريا : كتاب سير الائمة واخبارهم المعروف بتاريخ ابى زكريا دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ ، ص ٥٧ ، ٥٩ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٣١٧

(١٣) مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٧ ، الحميرى : نفس المصدر ، ص ٩

(١٤) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧١

فقد كانت تتكون من البربر والموالى ولم يكن فيها من العرب الا أقل القليل[١٥] ، رغم أن موسى كان قد ترك تحت امرة طارق بعد أن ولاه طنجة وما والاها من بلاد المغرب الأقصى جندا من العرب يقدر عددهم باثنى عشر ألفا[١٦] ، ولكنه فضل أن تكون الحملة التى اتجهت لفتح الأندلس تحت قيادة قائد وجند من البربر لما سقناه من أسباب .

وثانيا ، لأن البربر الحديثى عهد بالاسلام كانوا فى ذلك الوقت يتقدمون حماسة لفتح البلاد ونشر الاسلام ، وكانت هذه الميول وتلك الحماسة تجد صداها عند الخلفاء والحكام العرب ، فهم من ناحية يستفيدون من هذه القوة الاسلامية الجديدة فى تحقيق الأهداف الاسلامية ، ومن ناحية أخرى يشغلونها بخوض غمار هذه الفتوحات حتى لا يتيحوا لها فرصة التفكير فى أى أمر قد يسبب متاعب للدولة .

ولذلك كان قائد أول حملة استطلاعية لفتح الأندلس من البربر وهو طريف بن مالك ، وكذلك كان قائد الحملة الرئيسية التى توجهت لفتح هذه البلاد من البربر أيضا وهو طارق بن زياد . أما الأصل اليهودى لطريف بن مالك الذى أشار اليه البكرى ونقله عنه ابن عذارى ، فهو أمر غير صحيح لعدة أسباب :

السبب الأول : هو أن ابن حوقل الذى يعتبر أول من تحدث عن برغواطة وبنى صالح بن طريف ودورهم السياسى والدينى ، لم يشر اطلاقا الى الأصل اليهودى لهؤلاء القوم[١٧] ، وهو أقدم من البكرى الذى أشار الى هذا الأصل[١٨] . فابن حوقل توفى عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م بينما توفى البكرى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وكان ابن حوقل معاصرا

---

(١٥) الحميرى : نفس المصدر ، ص ٩ ، مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٧

(١٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٢

(١٧) صورة الأرض ، ص ٨٢ ، ٨٣

(١٨) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٧

لفترة ازدهار هذه الدولة ، وماكتبه عن أحوال بلاد المغرب وأهلها ومنهم بنو صالح بطبيعة الحال كتبه عن ادراك ومشاهدة بالعيان أو أخذه عمن نشــأ فى هذه البلاد وكان أدرى بها[١٩] .

أما البكرى فلم يكن معاصرا للفترة الرئيسية من عمر دولة بنى صالح والتى تمتد منذ قيام هذه الدولة فى عــام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م الى عــام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م وهو العام الذى انقطعت فيه سلســلة ملوك هــذه الأسرة الا واحدا ظهر حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة[٢٠] .

والسبب الثانى هو أن ابن خلدون نفى قصــة الأصــل اليهودى لصالح بن طريف وبالتالى لأبيه طريف بن مالك نفيا قاطعا وقال انه من « الأغاليط البينة » وأرجع أصل صالح وأبيه طريف بن مالك الى برغواطة من مصمودة وقال مبرهنــا على ذلك انه « لا يتم الملك والتغلب على النواحى والقبائل لمنقطع جذمه دخيل فى نسبه ، سنة الله فى عباده ، وانما نسب الرجل فى برغواطة ، وهم شعب من شعوب المصامدة معروف »[٢١] .

والسبب الثالث : هو أن العصر الذى نشأت وازدهرت فيه دولــة بنى صالح البرغواطيين كان عصر عداوات وخصومات مذهبية وسياسية ، ولذلك فانه من المرجح أن قصة الأصل اليهودى التى ظهرت فجأة عنــد البكرى الذى كتب كتابه الذى أورد فيه هذه القصة فى عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، ما هى الا تعبير عن أثر هذه العداوات والخصومات ، وما هى الا اختراع أو تلفيق من أعداء بنى صالح وخصومهم .

يدل على ذلك أن قصة الأصل اليهودى وردت عند البكرى على لســان رسول أحد ملوك بنى صالح البرغواطيين كان قد وفد الى الخليفة الأموى الحكم المستنصر فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م لتوثيق العلاقــات التاريخية التى كانت تربط الفريقين والتى كان يحرص بنو صالح على

(١٩) صورة الأرض ، ص ٨٣
(٢٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٩
(٢١) المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٢١٠

استمرارها قوية وفعالة[٢٢] ، ولم يكن منطقيا أو معقولا ، ولم يكن من الحنكة السياسية أن ينسب هذا الرسول مليكه الى اليهود وأمام خليفة عربى مسلم ، فى الوقت الذى كان يحرص فيه معظم ملوك البربر والسودان على الانتساب الى أصل عربى ، بل الى أصل هاشمى شريف أو قرشى ، زيادة فى توثيق الروابط بينهم وبين دولة العروبة والاسلام[٢٣].

وعلى ذلك فان طريف بن مالك الملقب بأبى زرعة وبأبى صالح التى حرفت فى احدى طبعات كتاب تاريخ ابن خلدون الى أبى صبيح[٢٤] ، هو مسلم من البربر ، أو مولى مسلم من البربر من موالى موسى بن نصير تماما كما كان طارق بن زياد ، وهو رجل ينتمى الى برغواطة ، وبرغواطة احدى قبائل مصمودة[٢٥] ومصمودة احدى قبائل البرانس الخمسة أو السبعة[٢٦] ، وكانت أكبر هذه القبائل وأوفرها عددا وأوسعها شعوبا وأكثرها بطونا[٢٧]. وكانت هذه البطون تتركز وتنتشر فى جنوب المغرب الأقصى وفى وسطه وفى شماله[٢٨] . وكانت برغواطة

---

(٢٢) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢٣) المراكشى : نفس المصدر ، ص ٩٩ ، ١٠٤ ، ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ، ص ٢٦ ، ٥٩

(٢٤) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٢٥) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

(٢٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٦٥ ، ابن حزم : نفس المصدر ، ص ٤٩٥

(٢٧) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، عالم الكتب ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٩ ، ج ١ ص ٢٣٩ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٦ القلقشندى : قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٩

(٢٨) كان مصامدة الجنوب يتركزون فى السوس الأقصى وحاحا وجزولة وناحية مراكش واغمات ونفيس وفى جبال درن التى تعرف بجبال أطلس ولذلك سموا بمصامدة جبال درن ، وكانوا أمما كثيرة وقبائل وافرة العدد اتخذوا المعاقل والحصون والقصور بهذه الجبال الغنية بمواردها

وعلى رأسهم بنو صالح يمثلون مصامدة الوسط حيث أقاموا لأنفسهم دولة فى اقليم تامسنا على يد طريف بن مالك الذى كان كبير برغواطة فى أوائل القرن الثانى للهجرة[٢٩] .

وكما أشرنا فقد كان لهذا الرجل شأنه فى الفتوحات الاسلامية أيام موسى بن نصير . ويبدو أنه كان على قدر كبير من الكفاءة والمقدرة، ولذلك أوكل اليه موسى قيادة أول حملة استطلاعية خرجت الى السواحل الجنوبية لبلاد الأندلس كى تستطلع أحوالها وتستكشف مدى قوتها وقوة أهلها وقدرتهم على الدفاع عنها ولتتحقق من نوايا جوليان حاكم سبتة الذى حرضهم على فتح هذه البلاد[٣٠] .

كان طريف بن مالك على رأس أربعمائة جندى من المشاه ومائة من الفرسان عبر بهم بحر الزقاق الذى عرف فيما بعد بمضيق جبل طارق فى أربع سفن ، ونزل فى جزيرة صغيرة تسمى بالوماس Palomas

---

المائية والزراعية والحيوانية ، ومنهم قامت دولة الموحدين على يد المهدى ابن تومرت فى بلاد المغرب الأقصى ، ودولة الحفصيين فى تونس .

انظر : البكرى ، ص ١٦٠ ، الادريسى جـ ١ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦، ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، الحسن الوزان ، جـ ١ ص٣٦

أما مصامدة الشمال وعلى راسهم قبيلة غمارة فقد كانوا يسكنون اقليم طنجة وبلاد الريف حتى تلمسان فى بلاد الجزائر . وغمارة لا تقال عدداً عن مصامدة الجنوب ، ورغم كثرتهم فانهم لم ينشئوا دولا لانفسهم كما فعل فعل مصامدة الجنوب والوسط ، انما أقاموا دولا لغيرهم مثل امارة نكور التى راستها أسرة عربية من بنى صالح بن منصور الحميرى ، كذلك التفوا حول الادارسة فى بلاد الريف وساعدوهم على البقاء مدة طويلة فى هذه البلاد حتى قضى عليهم المنصور بن ابى عامر حاكم الاندلس فى عام ٣٦٠ هـ .

انظر : ابن خلدون جـ ٦ ص ٢١١—٢١٩ ، الحسن الوزان : جـ١ ص٣٨ .

(٢٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٣٠) الحميرى : نفس المصدر ، ص ٧ ، ٨ ، مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٦ ، ١٧.

على مقربة من مدينـة طريف الحاليـة التى سميت باسمه لنزوله فيها والتى لا زالت تحمل اسمه حتى الآن وتعرف باسم Tarifa (٣١) .

ومن مدينة طريف شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبى للأندلس المقابل لساحل سبتة فيما بين جزيرة طريف والجزيرة الخضراء(٣٢) ، وجمع معلومات عن المنطقة بعد أن درس أحوالها وتعرف على مواقعها وخاصة الموقع الذى عرف فيما بعد باسم جبل طارق ، فكانت هذه المعلومات عونا فى وضع خطة الفتح ونزول طارق بن زياد بجيشه على هذا الجبل(٣٣) .

---

(٣١) الحميرى : نفس المصـدر ، ص ٨ ، ١٢٧ ، مجهـول : أخبـار مجموعة ، ص ١٦ ، السـيد عبـد العزيز سـالم : نفس المرجع ، ص ٧٠ ، عبد الرحمن الحجى : نفس المرجع ، ص ٤٥ — ٤٦
جزيرة طريف ليست بجزيرة ، وانما هى مدينة تقع فى شبه جزيرة تقع فى أقصى نقطة من الطرف الجنـوبى للقارة الاوربية . وتقع على هـذا الطرف من جانبه الجنـوبى الغربى هذه المدينة التى تقع امامها جزيرتان ويتلاقى عنـدها البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى . كما تقع على هـذا الطرف من جانبه الجنوبى الشرقى مدينة اخرى تعرف باسـم الجزيرة الخضراء ، وهى ايضا ليست بجزيرة . ومدينة طريف التى سميت باسم طريف بن مالك والتى اشـتهرت باسم جزيرة طريف تقع عنـد سـفح سلسلة من الجبـال تسمى جبال القمر وتبعد عن جزيرة طريف بمقدار ثمانية عشر ميلا عبر وادى يسـمى وادى النسـاء ، وهو نهر جار . كما ان جزيرة طريف تقابل فى الضفة الثانية من بحر الزقاق أو مجاز الزقاق مرسى القصر المنسـوب لمصمودة ، وعرض البحر بينهما اثنا عشر ميلا . وهـذا القصر حصن كبير يقع بين سبتة وطنجة ، وكانت تصنع فى مينائه السـفن والحراريق التى يسافر فيها الناس الى بلاد الاندلس .
انظر : الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ٢ ص ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٩ ، المراكشى : ص٢٠٧ ، ابن سعيد : بسط الأرض ، ص٧٣ ، الحميرى: ص١٢٧ دائرة المعارف الاسلامية ، جـ ١٥ ، ص ١٧١ ، شكيب ارسلان : الحلل السـندسية فى الأخبار والآثار الاندلسية ، جـ ١ ص ٢٠٠ ، محمـد أسـعد طلس ، تاريخ الأمة العربية فى عصر بنى أميـة ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٢٣
(٣٢) مجهول : أخبار مجموعة ، ص ١٦ ، ١٧ ، الحميرى : ص ١٢٧ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ص ٧٠ ، حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٦٧
(٣٣) عبد الرحمن الحجى : نفس المرجع ، ص ٤٦

وبعد أن أدى طريف مهمته وأنجز ما أرسل من أجله عاد فى رمضان من عام ٩١ هـ / يوليو ٧١٠ م بجيشه سالمـا محملا بغنائم كثيرة ، ونتج عن ذلك أن تبين لموسى بن نصير صدق جوليان الذى كان حاكما لسبتة فى ذلك الحين والذى كان قد استحث المسلمين على فتح الأندلس لأغراض شخصية ، فاطمأنت نفس موسى واشتد عزمه على فتح هذه البـلاد ، واستدعى مولاه طارقا لهذا الغرض ، وأمره على سبعة آلاف جنـدى جلهم كما قلنا من البربر والموالى ليس فيهم من العرب الا قليل[٣٤] .

ونحن هنـا لا يهمنا أن نتعرض لفتح الأندلس فذلك خارج عن نطاق بحثنا ، ولكن يهمنا أن نبين دور طريف وقومه فى هذا الفتح ، لأن هذا الأمر سوف يكون له أثره فى اتجاهاتهم السياسيه فيما بعد . وحسبما ذكرنا كان لطريف فضل قيادة أول حملة استطلاعية كان لها نتائجها المفيدة التى أشرنا اليها .

وطبيعى أن طريف بن مالك لن ينتهى دوره عند هذا الحد ، بل نراه يكون على رأس حملة أخرى مكونة من خمسـة آلاف جنـدى أغلبهم من الفرسـان أرسلها موسى بن نصير لطارق بن زياد نجدة له بعـد أن كان طـارق قـد نجح فى العبـور الى الأندلـس فى عـام ٩٢ هـ / ٧١١ م ، وتمركز فى جنـوب هذه البلاد وخاصة فى الجبـل الذى عرف باسـمه ، واحتل المنطقة الجنوبية فيما بين الجزيرة الخضراء والبحيرة عند وادى البرباط ، وأقبل اليه ملك الأندلس المسمى لذريق فى جمع كبير وجيش عرمرم لا قبـل لطارق به ، فأرسـل لموسى يستنجد به فأرسـل اليه طريف بن مالك على رأس هذا المدد ، وبهم كملت عدة جنـد طارق فصاروا اثنى عشر ألفا[٣٥] .

---

(٣٤) بن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٧ ـ ٩ ، مجهول : اخبار مجموعة ص ١٧ ، الحميرى : نفس المصدر ص ٩ ، السيد عبد العزيز سـالم : نفس المرجع ، ص ٧٠

(٣٥) ابن عـذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٣ ، مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٧ ، السيد عبد العزيز سـالم : نفس المرجع ، ص ٧٥ ، عبد الرحمن الحجى : نفس المرجع ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ، حسـين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٧٢

وطبيعي أيضا أن طريف بن مالك سواء في حملته الأولى الاستطلاعية أم في حملته الثانية المنجدة لطارق بن زياد كان على رأس قومه من بربر برغواطة ومصمودة التي كانت تقيم في بلاد الريف وتمتد ديارها جنوبا لتشمل بلاد تامسنا كما سبق القول ، بل ان جيش طارق بن زياد نفسه كان يحتوي أيضا على عدد كبير من مصمودة التي كانت تقيم في بلاد الريف وتامسنا حيث كان طارق حاكما على هذه المنطقة منذ أن ولاه عليها موسى بن نصير في عام ٨٥هـ/٧٠٤م[٣٦] أو في عام ٨٨ هـ / ٧٠٧ م حسبما يقول ابن خلدون[٣٧] . يضاف الى ذلك هؤلاء الرهائن من المصامدة الذين كان القائد زرعة بن أبي مدرك وغيره من القواد قد أخذهم بعد أن قاتل مصمودة وهزمها ، وحملهم الى طنجة وتركهم عند طارق بن زياد الذي كان واليا على هذه المدينة وما حولها ، واستعان بهم في حملته على بلاد الأندلس[٣٨] .

وأمامنا دليلان على أن برغواطة وزعماءها من بني طريف بن مالك وسائر قبائل مصمودة الأخرى قد اشتركوا في فتح بلاد الأندلس : الدليل الأول هو ما ذكره البكري من أن اسم برغواطة نسبة الى وادي برباط[٣٩] الذي جرت عنده المعركة الفاصلة التي تمكن فيها طارق بن زياد من هزيمة جيش الأسبان وسحق قواتهم ومطاردة من نجا منهم حتى تمكن من دخول طليطلة عاصمة القوط في ذلك الحين[٤٠] .

وفي ذلك يقول البكري أن يونس بن الياس بن صالح بن طريف « أصله من شذونة من وادي بربط ثم رحل الى المشرق وحج وعاد الى

(٣٦) ابن عذاري : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٣
(٣٧) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٤ ص ١٨٨
(٣٨) ابن عذاري : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٢ ، ٤٣ ، ابن خلدون: نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٨٨
(٣٩) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٨
(٤٠) مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٨ — ٢٠ ، حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٧١ — ٧٣

تامســـنا ودعا أهلها الى دينه ... وسمى من اتبعــه بربطى لمـا كان من بربط ثم أحالوه بألســنتهم وردوه الى لغاتهم فقالوا برغواطى »[٤١].

وينسب ابن خلدون هذا العمل الى صالح بن طريف فيقــول ان بعض الناس نقل أن صالحا هذا « يهودى من ولد اســحاق بن يعقوب نشــأ ببرباط ورحل الى المشرق وقرأ على عبد الله المعتزلى واشــتغل بالسحر وجمع فنونا وقدم المغرب ونزل تامسنا فوجد بها قبائل جهالا من البربر فأظهر لهم الزهــد وسحرهم بلســانه وموه عليهم فقصــدوه واتبعوه فادعى النبوة وقيــل له برباطى نســبة الى الموطن الذى نشــأ به وهو برباط واد بفحص شريش من بلاد الأندلس فعربت العرب هذا الاسم وقالوا برغواط ، ذكر ذلك كله صاحب كتاب الجوهر وغيره من النســابين للبربر ، وهو من الأغاليط البينة .. الخ »[٤٢].

ومــع أن هــذا القــول وكذلك قــول البكرى من الأغاليــط بالنســـبة للأصــل اليهودى لصــالح بن طريف الا أنه يدل على أن برغواطة قــد اشــترك منها قــوم فى فتح الأندلس مع قائدهم طريف وأيضا مع طارق بن زياد ، وربما بقى بعضهم هناك مما جعل بعض الناس يقولون أن صــالحا بن طريف أو حفيــده يونس بن الياس بن صالح ابن طريف نشــأ فى وادى برباط فى هذه البلاد ومن ثم جاءت النسبة الى برباط فقيل برغواطى ومنه جاء اسم برغواطة الذى لا يتنافى مع كون برغواطة احــدى قبائل المصــامدة كمــا ذكر ذلك ابن خلدون وأكده على اعتبار أن برغواطة ضمت عددا من قبائل مصــمودة وكانت هى احدى هذه القبائل[٤٣].

أما الدليل الثانى والمؤكد فهو ما يشــير اليه ابن حزم من وجــود بيوتات عــديدة لمصمودة فى بلاد الأندلس ســواء فى منطقــة الثغر أم فى غيرها من أنحاء الأندلس . ولا ندرى على وجــه التحديد هــل

---

(٤١) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٧ — ١٣٨

(٤٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢١٠

(٤٣) المصدر الســابق ، جـ ٦ ، ص ٢٠٧ ، ٢١٠

اشتركت هذه البيوتات المصمودية في فتح الأندلس تحت قيادة طريف أو طارق ، أم أنها هاجرت الى بلاد الأندلس بعد تمام الفتح ، أو أن بعضــا منها كان مع جيش الفتح والبعض الآخر هاجر اليها بعد ذلك ، وهو الأمر المعقول والمقبول والذى يدل عليه سياق الأحداث .

وعلى أى حال فقد كان من بين أمراء الثغر وهى البلاد التى تقع على أطراف الأندلس من نواحيها الشـمالية والتى كانت تقف فى مواجهة الأسبان النصارى وترد كيدهم وعدوانهم على هذه البلاد الاسلامية ، عدد كبير من الأمراء المصامدة والبيوت المصمودية(٤٤) . وفى غير بلاد الثغر كان من مصمودة أيضــا بيوت أخرى عديدة ، منها بيت طريف الذى نتحدث عنه وصاحب الحملة الاستطلاعية الأولى ووالد صــالح الذى نسبت اليه دولة برغواطة فى بلاد تامســنا وهى موضوع بحثنا . وكان بنو طريف هؤلاء يقيمون فى مدينة أشونة(٤٥) .

---

(٤٤) من البيوت المصمودية فى منطقة الثغور بالاندلس بنو الفرج بوادى الحجارة ، وبنو مضى وبنو رسين ، وبنو سالم الذين تنسب اليهم مدينة سالم ، وتنسب مدينة الفرج الى ابنه الفرج بن سالم . وكان بنو ســالم هؤلاء موالى لبنى مخزوم ، وكان لأبى جعفر منهم ابنان بطرسونة قرب تطيــلة فى منطقة الثغر الأعلى الاندلسى (سرقسطة) وهما عبد الله وأحمد ، وعقبــه من هذين الابنين فى هذه المنطقة .

انظر : ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٤٩٩ ، ٥٠١ .

ومعنى أن مدينة ســالم ومدينة فرج تنسب الى رجال من مصمودة فان ذلك يدل على أن هؤلاء القوم قد اشــتركوا فى فتح هــذه البــلاد أو هاجروا اليها بعد قليــل وبنوا فيها هــذه المدن التى حملت اسماءهم .

(٤٥) من البيوت المصمودية التى أقامت فى غير منطقة الثغــور ، بالاندلس ، بنو ســفيان بن عبد ربه الحاجب الذى يقول ابن حزم أنهم بادوا ولا يعلم لهم بقيــة ، وبنو يحيى بن كثير ، صــاحب الامام مالك ابن انس رضى الله عنه ، وكانت لهم ثروة وعــدد ، وكانت لهم بقية يسيرة فى عصر ابن حزم . وعبد الجبار بن زاقلة القائم بمدينة ماردة ، وبنو دانس ابن عوســجة الذين كانوا أصــحاب قلنبيرة ، وينسب قصر أبى دانس المعروف الى جدهم هــذا ، ومنهم أيضا صــاحب مدينة ماردة مسعود ابن تاجيت بن محمد ، وكان هــو وأبوه وجده أصحاب هــذه المدينة ، كما كانوا أصحاب قورية ولجدانية ولكنهم تركوها وفروا منها بعــد أن قلب عليها الأسبان .

انظر ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٥٠٠ ، ٥٠١

.. ومن اشارات ابن حزم وحديثه عن البيوتات المصمودية فى بلاد الأندلس يتبين لنا عظيم مشـاركة مصمودة وطريف وبنيه فى فتح هذه البلاد وفى تعميرها وفى الدفاع عنها وفى نشر الاسـلام بها وفى حكم كثير من مدنها حتى صاروا أمراء وكونوا بيوتا حاكمة . ومع ذلك فقد جد من الأحداث ما عكر الصـفو بين العرب والبربر الذين كانوا قـد أسلموا وحسن اسلامهم وصار منهم القواد الذين رأينا جهدهم فى فتح بلاد الأندلس ــ أمثال طريف بن مالك وطارق بن زياد وغيرهما ، فحدث صـدام بين الفريقين على أرض المغرب الأقصى ثم فى بلاد الأندلس بعد ذلك ونتج عن هـذا الصـدام قيام دولة بنى صـالح بن طريف فى تامسـنا بالمغرب الأقصى .

ذلك أن بعض ولاة بنى أمية لم يحسـنوا معاملة البربر وأسـاءوا اليهم فثاروا عليهم فى عام ١٢٢هـ/٧٤٠م ، بعد أن كانوا قد اعتنقوا مذاهب معارضة للدولة بنى أمية وخاصة مذاهب الخوارج ، ومن أشهر هذه المذاهب المذهب الصفرى الذى انتشر فى بلاد المغرب الأقصى أكثر من غيرها من بلاد المغرب الأخرى . ولم يكن قيام هؤلاء الخوارج الصفرية من البربر فى وجه ولاة بنى أميـة خروجا على الدين ، بل كان خروجا على السلطة الحاكمة لظلم الولاة لهم وقيامهم بفرض ضرائب فادحة غير مشروعة ، وزاد الطين بلة أن أحـد هؤلاء الولاة أراد أن يشم (بكسر الشين) حراسـه من البربر فى أيديهم ليعرفوا للناس كما تصنع الروم ، فأنف البربر من ذلك وتآمروا عليـه[٤٦] ، خاصة وأنه أراد أن يفرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم تأسـيا بما فعله الحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق من قبـل ، فقتله البربر لشهر من ولايته وذلك فى عام ١٠١ هـ / ٧١٩ م وولوا على أنفسـهم عاملا سابقا وكتبوا الى الخليفة

---

(٤٦) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، الرقيق القيروانى: نفس المصـدر ، ص ٩٩ ، ١٠٠

الأموى يزيد بن عبد الملك بأنهم لم يخرجوا عن الطاعة ، واعتـذروا اليه عن قتلهم لواليهم يزيد بن أبى مسلم(٤٧) .

ومع ذلك لم يسـتفد الحكام والولاة الأمويون من هذا الدرس ، اذا أننـا نرى عنـد بداية العشرينـات من القرن الأول للهجرة عاملا آخر — وكان واليا على طنجة من قبل عبيد الله بن الحبحاب أمير افريقية والمغرب والأندلس — يريد تخميس البربر رغم اسلامهم زاعما أنهم فىء المسلمين ، وهو عمل لم يقم به عامل قبله ، اذ كان الولاة يخمسون من لم يستجب للاسـلام(٤٨) .

هذا فى الوقت الذى لم يجد فيـه هؤلاء البربر ما كانوا يؤملونه ثمنا لمـا قاموا به من تضحيات فى حربهم الى جانب العرب ، ولم يجدوا فى كثير من ولاتهم ما يحببهم اليهم ، فقـد كان بعض الولاة يعاملونهم معاملة السـيد للمسود لا معاملة النظير للنظير(٤٩) مما هيـأهم للثورة واعتناق المذاهب المعارضة للدولة سـواء مذاهب الخوارج أو مذاهب الشـيعة . فالمعروف أن دولا خوارجية قامت فى بلاد المغرب على يد البربر فى القرن الثانى للهجرة مثل دولة بنى مدرار فى سجلماسـة ودولة بنى صـالح فى تامسـنا ، كما قامت دولة شـيعية كبرى هى الدولة الفاطمية بمساعدة البربر أيضا قبيل نهاية القرن الثالث للهجرة .

وقد عبرت ثورات البربر التى اندلعت منذ عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م أولا فى طنجة والمغرب الأقصى عن ظهور أولى الحركات الاستقلالية ، وقد نادت هذه الحركات بأن الامامة أو الخلافة ليست مقصـورة على

---

(٤٧) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٨٨

(٤٨) الرقيـق القـيروانى : نفس المصـدر ، ص ١٠٩ ، ابن عـذارى : نفس المصـدر ، جـ ٥ ص ٥١ ، ٥٢ ، حسـن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ ، ص ٤٥

(٤٩) حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع ، ص ٤٥ ، حسـين مؤنس : نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٦٢

العرب وحدهم بل يشترك فيها المسلمون على السواء ، فهى ثورة على الامامة القرشية . وقد تلقف البربر هذه المبادىء واعتنقوها معارضة منهم للحكم الأموى ووقوفا فى وجه الخلافة وعمالها الذين أساءوا السيرة والتدبير(٥٠) .

وقد انبعثت أول شرارة لهذه الثورة فى مدينة طنجة حيث توجد قبيلة غمارة المصمودية وقبيلة مطغرة التى خرج منها زعيم الثورة المعروف باسم ميسرة المطغرى أو ميسرة الحقير كما سمى نفسه(٥١) ، وعمت ثورته طنجة وتامسنا ببلاد السوس الأدنى ، وكان المصامدة مع زناتة يشكلون جل قوات هذه الثورة حيث كانوا هم غالبية سكان هذه المنطقة لدرجة أن جوليان حاكم سبتة كان يسمى ملك غمارة(٥٢) واستطاعت برغواطة وغمارة ومطغرة أن تستقل بطنجة والسوس الأدنى تحت قيادة ميسرة المطغرى(٥٣) الذى تسمى بالخلافة وعين العمال(٥٤) ، وزحف الى بلاد السوس حيث قتل عاملها وكان ابنا لعبيد الله بن الحبحاب والى افريقية والمغرب كله . وبمقتله بدأ صدام كبير بين الدولة وبين بربر المغرب الأقصى وعلى رأسهم قبائل مصمودة وغمارة ومطغرة(٥٥) تحت قيادة ميسرة المطغرى الذى كان رأس الصفرية فى ذلك الحين(٥٦) .

وكانت برغواطة المصمودية ضمن هذه القبائل التى اشتركت فى هذه الثورة تحت قيادة زعيمها طريف بن مالك ، ذلك أنها كانت هى الأخرى قد اعتنقت مذهب الخوارج فى ذلك الحين . وقد أشار الى

---

(٥٠) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٤٩
(٥١) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٢
(٥٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٨٦
(٥٣) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٥٠
(٥٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٨ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٢
(٥٥) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٢
(٥٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٣

ذلك ابن عذارى وقال انه « كان بالمغرب حينئذ قوم ظهرت فيهم دعـوة الخوارج ولهم عدد كثير وشوكة كبيرة وهم برغواطة »[٥٧] .

وقد سبق القول أن برغواطة هي عماد دولة بني صالح في تامسنا ، وكان طريف بن مالك هو الرجـل الذى وضع أساس هـذه الدولة . كما سـبق أن بينا دوره ودور قبيلته في فتوح الأندلس وفي تعميرها والدفاع عنها ، فما هو دوره الآن في هـذه الأحـداث التي قام بها خوارج الصفرية في بلاد المغرب الأقصى والتي مهدت لقيام دولته ودولة بنيه من بعده ؟

أجاب البكرى على هـذا التسـاؤل بقوله ان طريفا كان يحارب الى جانب ميسرة هـو وابنه صـالح[٥٨] الذى سميت دولة تامسـنا باسمه . ولم يكن طريف يحارب بجانب ميسرة كجندى عادى بل كقائد من قواد ميسرة[٥٩] وكصاحب من أصحابه المقربين[٦٠] ونحن هنا لا يهمنا أن نتحدث عن حروب ميسرة ومن خلفه في قيادة الصفرية بعد مقتـله على أيدى أصحابه بعد أن رأوا منه ما يخالف ما بايعوه عليه[٦١] ، لأن ذلك ليس مما يعنينا في هذا البحث ، وما يعنينا هو دور طريف بن مالك وأثر هذا الدور في قيام دولته في تامسـنا .

وبطبيعة الحال فان دور طريف لم ينته بمقتـل ميسرة المطغرى ، بل استمر هذا الدور طوال الحروب التي خاضها الصـفرية منـذ عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م ، وهو العام الذى خرجوا فيـه على الدولة وهزموا جيوشها في موقعتي الأشراف وبقدورة وحتى هزيمتهم على يد العرب في موقعـة القرن في عـام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م والأصـنام في عـام

---

(٥٧) المصدر السـابق ، ج ١ ص ٥٢
(٥٨) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥
(٥٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧
(٦٠) البكرى : نفس المصـدر ، ص ١٣٥ ، ابن عـذارى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٣
(٦١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٨

١٢٥ هـ / ٧٤٣ م[٦٣] . والدليل على استمرار دوره هو ما أشار اليه ابن عذارى من أن طريفا كان من جملة قواد العسكر الذى بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل حسب تقديره والذى اتجه الى القيروان للقضاء على سلطة بنى أمية فيها وضمها الى دولتهم التى أقاموها فى بلاد المغرب الأقصى[٦٣].

ولكن العرب تمكنوا من هزيمة هذه القوات الضخمة رغم قلة عددهم ، وارتد الصفرية جندا وقوادا الى بلادهم ، أى الى المغرب الأقصى بعد أن قتل منهم الكثير وتشتت شملهم وتبدد جمعهم ، وسار طريف الى تامسنا حيث قدمه البربر هناك على أنفسهم وقاموا بمبايعته[٦٤] ، فصار قائما بأمر الصفرية فى هذه البلاد[٦٥] ، وصار حاكما لهم منذ ذلك الحين ، أى منذ عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وهو العام الذى هزم فيه الصفرية هزيمتهم الثانية أمام العرب فى موقعة الأصنام فى ذلك العام كما سبق القول .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن بداية قيام دولة بنى صالح بتامسنا هو عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م . والى ذلك أشار ابن عذارى حيث قال فى أخبار ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م أنه فى هذه السنة « كان ابتداء ظهور برغواطة »[٦٦] التى أعلنت استقلالها وبايعت لطريف بن مالك وليس لابنه صالح كما قال السلاوى ، وذلك بعد أن عاد طريف الى المغرب الأقصى واستقر فى تامسنا فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م[٦٧] ، وليس فى عام ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م كما أشار ابن خلدون وقال ان ذلك كان فى عهد

---

(٦٢) عن المعارك التى خاضها ميسرة ومن جاء بعده فى قيادة الصفرية ، انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٢١٨ — ٢٢٣ ، اخبار مجموعة : ص ٣٦ — ٤١ ، ابن عذارى ، جـ ١ ص ٥٢ — ٥٦ ، الرقيق القيروانى : ص ١١٠ — ١٢٢

(٦٣) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٦ — ٥٧

(٦٤) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٧

(٦٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٦٦) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٦

(٦٧) السلاوى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٠٣

هشـــام بن عبد الملك[٦٨] ، لأن هذا الخليفة معروف أنه توفى فى عام ١٢٥ هـ وليس فى عام ١٢٧ هـ .

كما أن قيام دولة بنى صالح فى عام ١٢٥ هـ لم يكن على يد صالح ابن طريف كما قال ابن عذارى[٦٩] ، وانما على يد والده طريف بن مالك الذى ظل أميرا وحاكما لبلاد تامســنا حتى عام ١٣١ هـ / ٧٤٨ م حسب تقديرات البكرى الذى أتى بعـــدد الســنين التى حكمها كل ملك من بنى صالح[٧٠] والتى يمكنتنا منها معرفة أن بداية حكم صــالح بن طريف كان فى عام ١٣١ هـ / ٧٤٨ م . وعلى ذلك فان طريفا يكون قد حكم فى الفترة من عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م الى ذلك العــام وليس الى عام ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م الذى حدده الســلاوى لذلك ، لأن البكرى أقدم من السلاوى بكثير[٧١] .

وخلال هذه الفترة لم يشر المؤرخون الى شىء ذى بال فى بلاد تامســنا حيث أن الأمور كانت قد اســتقرت لطريف فى هذه البــلاد ولغيره من البربر فى بقية أنحاء المغرب الأقصى ، ذلك الدولة الأموية فى هذه الفترة كانت مشــغولة بالصراع الدامى الذى قام بين القيسية واليمانية فى بلاد الشــام والمشرق ، وبالدعــوة العباســية التى ظهرت بوادرها منذ عام ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م ، وكللت خطواتها بالنجاح فى عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م حيث تم اســقاط الخلافة الأموية فى ذلك العــام وقامت الخلافة العباسية[٧٢] .

أما فى بلاد المغرب فقد استولى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى

---

(٦٨) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٦٩) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٥٧

(٧٠) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٦ — ١٣٧

(٧١) السلاوى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٠٣

(٧٢) الطبرى : تاريخه ، تحقيق محمـــد ابو الفضـــل ابراهيم ، دار المعارف ، ســنة ١٩٦٦ ، جـ ٧ ص ٣٠ — ٣٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٧ — ٢٨٥ ، ٢٩٣

على ولاية افريقية منذ عام ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م وطرد عاملها وصار حاكما لها بالقهر والغلبة مستغلا ظروف دولة بنى أمية فى أيامها الأخيرة(٧٣) ، كما استولى طريف بن مالك على بلاد تامسنا بالمغرب الأقصى فى العام السابق ، وصار أميرا على البربر(٧٤) فى هذه البلاد وملكا عليهم ، ولم يكن ملكا على زناتة وزواغة كما قال البكرى(٧٥) لأنه ليس منهم ، الا اذا فهم هذا القول على أساس أنه كان ملكا على بربر تامسنا بصفة عامة بما فيهم بربر زناتة وزواغة الذين كانوا يشكلون جزءا من سكانها .

وكان طريف أيضا قائما على أمر الصفرية فى هذه البلاد(٧٦) بحكم أنه كان أحد قوادهم وحارب فى صفوفهم واشترك فى معاركهم التى خاضوها كلها منذ ظهور ميسرة وحتى هزيمتهم فى عام ١٢٥ هـ كما سبق القول ، « وكان على ديانة الاسلام »(٧٧) على مذهب الصفرية ، وظل قائما بأمر هذا المذهب حتى مات ، ولم يغير من عقيدته شيئا ولم يفعل ما أشار اليه ابن عذارى من أنه استغل جهل بربر تامسنا فلما قدموه على أنفسهم « شرع لهم ما شرع » ، لأن البكرى وهو أقدم منه بحوالى ثلاثة قرون من الزمان وكان معاصرا لنهاية دولتهم ، وهو أول من أعطانا عنها تفصيلات أخذها عنه ابن عذارى وابن خلدون لم يشر الى شيء من ذلك ، كما أن ابن عذارى نفسه أشار فى موضع آخر الى أن طريفا كان على دين الاسلام(٧٨) .

---

(٧٣) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢٢٣ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٧٠ ، الرقيق القيروانى : نفس المصدر ، ص ١٢٣

(٧٤) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٤

(٧٥) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٥

(٧٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٧٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥

(٧٨) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٧ ، ٢٢٤ .

ومعنى ذلك أن طريفا لم يشرع شرعا جديدا ولم يأت بما يعاب عليه أو يؤخذ عليه ، وظل وفيا لمذهبه ، وفيا لبنى وطنه محافظا على تاريخه ودوره فى فتح بلاد الأندلس حتى توفى عام ١٣١هـ/٧٤٨م ، ولم يكن تصيبه نصيب القائد البربرى الشهير طارق بن زياد من غموض المصير وجهالة المنقلب . ذلك أن طريف بن مالك أسس دولة وترك أسرة حاكمة استمر وجودها قرونا من الزمان ، بينما لم تشر كتب التاريخ الى طارق بن زياد بشىء بعد انتهاء فتح الأندلس وعودة طارق وموسى الى دمشق ، اذ لف النسيان طارقا ولم نعد نسمع عنه شيئا بعد ذلك .

توفى طريف بن مالك وتولى ابنه صالح حكم بلاد تامسنا مدة طويلة تبلغ سبعة وأربعين عاما (١٣١ — ١٧٨ هـ / ٧٤٨ — ٧٩٤ م) ، مما يدل على قوته وقبول الناس لحكمه والا لما حكم هذه المدة الطويلة . وقد أخبرنا ابن عذارى أنه ولد عام ١١٠ هـ / ٧٢٨[٧٩] ، وأخبرنا ابن حوقل وهو أول من أشار اليه والى دوره فى تاريخ تامسنا أنه درس فى بلاد العراق وتعلم فيها « ودرس شيئا من النجوم وصلحت منزلته فى علمها الى أن قوم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب فى أكثر أحكامه ، وكان له حظ حسن وفهم بأطراف من العلم »[٨٠] .

كما ذكر كل من البكرى[٨١] وابن خلدون[٨٢] بأنه « كان من أهل العلم والخير » . وقد سبق أن ذكرنا أنه اشترك مع أبيه طريف فى حروب الصفرية التى اندلعت بين عامى ١٢٢ هـ و ١٢٥ هـ ، اذ كان أبوه أحد كبار القواد الذين ساهموا فى هذه الحروب بسهم وافر ،

---

(٧٩) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٤

(٨٠) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٨١) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٣٥

(٨٢) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٧

ولا بد أن الابن اتبع أباه فى مواقفه السياسـية والمذهبيـة ، فاذا كان طريف أحد الخارجين على الدولة الأموية متبعا المذهب الصفرى الذى يؤيد فكرة الخروج على أســاس أن الحكم لا يكون بالضرورة فى القرشيين وحدهم بل هو حق مباح لمن يصلح من المسلمين ســواء كان قرشيا أو غير قرشى ، عربيا أم غير عربى ، فان ابنه صالحا لا بد وأن يكون صفرى المذهب مثل أبيه ، ولكننا نرى ابن حوقل الذى مات قبل الضربة الأولى التى وجهت الى بنى صالح فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م بعام واحـد ، والبكرى الذى عاصر الضربة الأخيرة التى قضت عليهم وعلى دولتهم فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣م ، يقولان بأن صالح بن طريف ابتدع دينا جديدا يضعه فى مصاف المرتدين والكفرة .

ونص ما قاله ابن حوقل أن صالحا دعا البربر فى تامسنا الى دين جـديد « وذكر أنه نبى ورســول مبعوث اليهم بلغتهم واحتج بقول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » ، وأن محمـدا صلى الله عليه وسلم نبى حـق عربى اللســان مبعوث الى قومه والى العرب خاصة ، وأنه صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام ، واياه (أى صالح بن طريف) أراد الله عز وجل بقوله : « وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » ووعدهم غير كســوف فوجدوه ، وأنذرهم غير شىء فأدركوه وأصــابوه على حكايته ، فأفســد عقــولهم وبدل معارفهم وافترض عليهم طاعته فى سنن ابتدعها وأحوال فرضها واخترعها وأوجب عليهم صــوم شعبان وافطار شهر رمضان ، وعمل لهم كلاما رتله بلغتهم وشرع فيهم محابه على نحلتهم ، فهم يتدارســونه ويعظمونه ويصلون به »[٨٣] . ثم يقول ابن حوقل فى موضع آخر « كان صالح يحل لهم الطيبات ويبيحهم اللذات ويسوسهم فى المحظورات »[٨٤] .

---

(٨٣) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٦٢

(٨٤) المصدر السابق ، ص ٨٣

ويزيد البكرى الأمر وضـوحا فيقول عن صـالح بن طريف أنه « عهد الى (ابنه) الياس بديانته وعلمه شرائعه وفقهه فى دينه وأمره أن لا يظهر ذلك الا اذ قوى وآمن فانه يدعو الى ملته ويقتل من خالفه ، وأمره بموالاة أمير الأندلس ، وخرج الى المشرق ووعد أنه ينصرف اليهم فى دولة السـابع من ملوكهم ، وزعم أنه المهدى الأكبر الذى يخرج فى آخر الزمان لقتال الدجـال ، وأن عيسى بن مريم يكون من أصـحابه ويصلى خلفـه ، وأنه يملأ الأرض عدلا كما مليت (كذا) جورا ، وتكلم لهم فى ذلك كلاما كثيرا نسـبه الى موسى الكليم عليه السـلام ، والى سطيح الكاهن ، والى ابن عباس ، وزعم أن اسـمه فى العرب صالح ، وفى السريانى مالك ، وفى الأعجمى عالم ، وفى العبرانى وربيـا[٨٥] ، وفى البربرية ورياوري[٨٦] أى الذى ليس بعده شىء »[٨٧] ، أو الذى ليس بعده نبى[٨٨] .

ويفصل البكرى أمر هـذه الديانة التى نسبت الى صالح بن طريف والتى ظهرت فى عهد حفيده يونس (٢٢٨ — ٢٧١ هـ / ٨٤٢ — ٨٨٤ م) بأن القوم وقتذاك كانوا « يقدمون مع الاقرار بالنبيين والاقرار بنبوة صالح بن طريف ونبوة من تولى الأمر بعده من ولده ، وأن الكلام الذى ألف لهم وحى من الله تعالى لا يشكون فيـه تعالى الله عن ذلك ، وصوم رجب[٨٩] ، وأكل شهر رمضـان ، وخمس صلوات فى اليـوم وخمس صلوات فى الليلة ، والتضحية[٩٠] فى اليوم الحادى عشر من المحرم » .

---

(٨٥) روبيا عند ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٨٦) وربا عنـد ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٠٧

(٨٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥ — ١٣٦

(٨٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٧

(٨٩) صوم شهر شعبان عند ابن حوقل ، ص ٨٢

(٩٠) الضحية عند ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٢٦ ، والمقصـود هى الأضحية التى ينحرها المسلمون يوم عيد الأضحى .

« وفى الوضوء غسل السرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفاء وغسل الذراعين من المنكبين ومسح الرأس ثلاث مرات ومسح الأذنين كذلك ثم غسل الرجلين من الركبتين ، وبعض صلواتهم ايماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين ، وهم يسجدون ثلاث سجدات متصلة ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر » .

« واحرامهم أن يضع احدى يديه على الأخرى ويقول ابسمن ياكوش تفسيره بسم الله ، مقر ياكوش تفسيره الكبير الله ، ويضعون أيديهم مبسوطة فى الأرض طول ما يتشهدون ويقرون (كذا) نصف قرآنهم فى وقوفهم ونصفه فى ركوعهم ويقول (كذا) فى تسليمهم بالبربرية الله فوقنا لم يغب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ثم يقول (كذا) مقر ياكش خمسا وعشرين مرة ، ايحن ياكش مثل ذلك ، ومعناه الواحد الله ، وردام ياكش مثل ذلك ومعناه لا أحد مثل الله » .

« وهم يجمعون يوم الخميس ضحا وصيام يوم من كل جمعة فرض من فروضهم ، ويصوم الجمعة الأخرى التى تليه أبدا ويأخذون العشر فى الزكاة من جميع الحبوب ولا يأخذون من المسلمين شيئا ، ويتزوج من النساء ما استطاع على مباعلتهن والانفاق عليهن بلا حد عدد ، وأن لا يتزوج من بنات عمه الى ثلاثة جدود ، ولا يتسرون ولا ينكحن المسلمين ولا ينكحون منهم ، ويطلقون ويراجعون ما أحبوا » .

« ويقتل السارق بالاقرار وبالبينة ، والدية عندهم مايه من البقر ، ورأس كل حيوان عليهم حرام ، والحوت لا يوكل الا أن يذكى ، والبيض عندهم حرام والدجاج مكروهة الا أن يضطر عليها ، وليس عندهم أذان ولا اقامة ، وهم يكتفون فى معرفة الأوقات بزفاء الديوك[91] ، ولذلك

---

(٩١) زفاء الديوك تعنى صراخ الديكة . انظر : ابن عذارى جـ١ ص٢٢٧

حرموها ، وكان يبصق فى أيديهم فيلعقونه تبركا به ويحملون بصاقه الى مرضاهم يستشفون به »(٩٢) .

ويواصل البكرى كلامه عن دياتنهم أو مذهبهم فيقول : « قرآنهم الذى وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة الى أسماء النبيين من لدن آدم ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس ، وفيها سورة فرعون وسورة قارون وسورة هامان وسورة يأجوج ومأجوج وسورة الدجال وسورة العجل وسورة هاروت وماروت وسورة طالوت وسورة نمرود ، وما أشبه هذه من الأقاصيص ، وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة الحنش ، وكان يمشى على ثمانية أرجل ، وفيها سورة غرايب الدنيا ، وهناك العلم العظيم عندهم » (٩٣) .

وذكر البكرى كلمات مترجمة من أول سورة أيوب التى يبدأ بها كتابهم كما يقول (٩٤) . ولا شك أن أقوال البكرى التى استعرضناها بنصها هى أقوال تخرج الإنسان دون شك عن الاسلام وتجعله من المرتدين ، وتجعل دولة بنى صالح دولة مرتدة وكافرة . فهل كان بنو صالح وقومهم من برغواطة على هذا النحو ؟ وهل ارتدوا فعلا عن الاسلام واعتبروا من الكفرة ؟

وللاجابة عن هذه التساؤلات ولبيان حقيقة أمرهم يمكننا أن نضع أمامنا النقاط الآتية فى محاولة لمناقشة هذا الموضوع :

أولا — نلاحظ أن أول من أشار الى دياتنهم تلك هو ابن حوقل الذى توفى عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م . أما المؤرخون والجغرافيون السابقون عليه واللاحقون له فلم يذكروا شيئا عن هذه الديانة ولا شيئا عن

---

(٩٢) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .
(٩٣) المصدر السابق ص ١٤٠ .
(٩٤) المصدر السابق ونفس الصفحة .

برغواطة عدا البكرى ومن أخذ عنـه والذين يتمثلون فى ابن عـذارى وابن خلدون .

فابن عبـد الحكم الذى توفى عام ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م والذى كان معاصرا لدولة بنى صالح أثنـاء ازدهارها تحـدث عن فتوحات مصر والمغرب والأندلس ، وتحدث عن فتوحات العرب فى بلاد المغرب الأقصى وذكر ثورات الصفرية والأباضـية فى طول بلاد المغرب وعرضهـا(٩٥) ولكنه لم يذكر برغواطة ولم يذكر شـيئا عن أى ديانة أتت بها .

كما أن البلاذرى الذى توفى عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م كان هو الآخر معاصرا لدولة بنى صالح حين ازدهارها وتحدث عن الفتوحات الاسلامية فى بلاد المغرب الأقصى ، وأشار الى فتوحات المسلمين فى بلاد السوس الأدنى والتى تعتبر بلاد تامسنا جزءا منها وأشـار الى انتشار الاسلام فى هذه البـلاد والى غلبة الأباضية على بلاد افريقية وثورات الخوارج فى بلاد المغرب الأقصى(٩٦) ، ولكنه لم يشر مطلقا الى برغواطة ولا الى دين جديد أتت بـه .

وكذلك كان موقف اليعقوبى المتوفى عام ٢٧٢ هـ / ٨٩٥ م والذى كان هو الآخر معاصرا لدولة بنى صالح وسابقا على ابن حوقل بأكثر من قرن من الزمان وصاحب التاريخ المنسوب اليه وصاحب كتاب فى الجغرافيا يعرف بكتاب البلدان الذى أخذ منه كتاب آخر يعرف باسم صفة المغرب، ذلك أننا لا نجد ذكرا لأى دين أو عقيدة تخالف عقيدة الاسلام فيما كتبه اليعقوبى عن بلاد المغرب الأقصى . وعندما أشار فى كتابه الأخير الى قيام محمد بن ادريس بن ادريس بتوزيع أقاليم المغرب على اخوته ، وتحدث عن السوس الأقصى ، وعن سجلماسة(٩٧) فانه لم يشر مطلقا الى تامسـنا

---

(٩٥) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢٠٥ ، ٢١٨ — ٢٢٢
(٩٦) البلاذرى : نفس المصدر ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
(٩٧) اليعقوبى : صفة المغرب ، مطبعة بريل ، سنة ١٨٥٠ ، ص ١٢١

ولا الى برغواطة التى قيل ان زعماءها من بنى صالح هم الذين أتوا بهذا الدين الجديد الذى يعتبر ردة عن الاسلام .

ومن الجغرافيين السابقين أيضا على ابن حوقل ، ابن خرداذبة الذى توفى حوالى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، وكان معاصرا أيضا لدولة بنى صالح أيام ازدهارها ، ولكنه هو الآخر لم يشر مطلقا لبرغواطة حتى بالاسم ، ولم يشر الى ما نسب الى بنى صالح من ديانة . فقد أشار الى السوس الأدنى حين حديثه عن بلاد المغرب الأقصى وهى بلاد برغواطة ومقر دولة بنى صالح وقال ان أهلها بربر(٩٨) ، وحين حديثه عن قبائل هؤلاء البربر ذكر مصمودة التى تنسب اليها برغواطة ، كما ذكر غيرها من القبائل التى كانت تشكل دولة بنى صالح مثل غمارة ومطماطة ونفزة(٩٩) ، ولكنه لم يذكر برغواطة حتى بالاسم .

أما المعاصرون لابن حوقل من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين فلم يشيروا الى برغواطة ولا الى ما أتت به من ديانة ، فالا صطخرى الذى توفى قبل عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م تحدث عن السوس الأقصى وعن اقليم طنجة أو كورة طنجة وقال ان مدينتها العظمى تسمى فاس(١٠٠) ، ولم يذكر السوس الأدنى باسمه وانما اعتبر هذا السوس هو نفسه اقليم طنجة التى جعلها تمتد لتشمل اقليم فاس الذى يعتبر السوس الأدنى جزءا منه . وعلى ذلك فانه لم يشر الى برغواطة وانما ذكر مصمودة وقال انها من بربر بلاد المغرب والأندلس(١٠١) ، كما ذكر مذاهب أهل المغرب الدينية فقال ان « الغالب على مذاهب أهل المغرب كلهم مذاهب الحديث

---

(٩٨) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٨٩

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٩٠

(١٠٠) المسالك والممالك للاصطخرى ص ٣٤

(١٠١) المصدر السابق ص ٣٦

أغلبها عليهم فى الفتيا مذهب مالك بن أنس »[١٠٢] ، وأشار الى مذاهب خرى تخالف هذا المذهب مثل المذهب الأباضى الذى كان منتشرا فى تاهرت كان غالبا عليها[١٠٣] ، ولكنه لم يذكر هذه الديانة التى قيل انها كانت نتشرة فى بلاد تامسنا (السوس الأدنى) وان بنى صالح بن طريف يتدعوها ، مع أن هذه الديانة كانت جديرة بالذكر نظرا لسمتها التى وصفت بها والتى تلفت اليها نظر المؤرخ أو الكاتب دون شك ، ولا تجعله ينأى نهـا بالذكر أو التدوين .

وكذلك فعل المقدسى المتوفى عام ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م والذى كان معاصرا لبنى صالح ودولتهم فى تامسنا ، فقد تحدث عن اقليم السوس لأدنى الذى جعله يمتد من سبته الى طنجة وجنوبا الى سـلا ، وجعله يشتمل بذلك على بلاد تامسنا وقال ان قصبته هى فاس ، وأشار الى مدنه التى كان منها سـلا ومنها مطماطة[١٠٤] التى كانت جزءا من بلاد تامسنا ، كما ذكر غير ذلك من المدن الأخرى ولكنه لم يذكر تامسنا ولا برغواطة بالاسم ، ولم يشر الى هذه الديانة التى كان معاصرا لهـا والتى ذكرها ابن حوقل الذى توفى قبله بأقل من ثلاثين عاما .

واذا انتقلنا بعد ذلك الى من أتوا بعد ذلك من الرحالة والمؤرخين نجـد أن الادريسى المتوفى عام ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م أشـار الى تامسنا وبلادها وذكر برغواطة وغيرها من القبـائل التى كانت تعيش فى هـذه البـلاد[١٠٥] ، ولكنه لم يشر مطلقا الى دين ابتدعته برغواطة وقام عليه بنو صالح البرغواطيون ، رغم أنه أشـار الى المذاهب التى انتشرت فى بلاد المغرب الأقصى حتى فى الجزء الجنوبى منه وهو السوس الأقصى ،

---

(١٠٢) المصدر السابق ص ٣٧

(١٠٣) المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٧

(١٠٤) المقدسى : نفس المصدر ص ١٨٤

(١٠٥) نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٣٦ — ٢٤٠

فقال : « أهل السوس فرقتان ، فأهل مدينة تارودنت يتمذهبون بمذهب المالكية من المسلمين وهم حشوية ، وأهل بلد تويوين يقولون بمذهب موسى بن جعفر (أى شيعة) وبينهم أبدا القتال والفتنة وسفك الدماء وطلب الثـأر »[١٠٦] .

كما أشار الادريسى الى دعوة الموحدين الذين قامت دولتهم فى جبل درن (أطلس) على أيدى المصامدة[١٠٧] الذين ينسب اليهم مصامدة تامسنا ومنهم برغواطة . وقد انتقد الادريسى الموحدين حين حديثه عن تغلبهم على مدينة مراكش فقال انهم « تركوا الجامع الذى كان يوسف ابن تاشفين قد بناه عطلا مغلق الأبواب لا يرون الصلاة فيه ، وصنعوا لأنفسهم مسجدا جامعا يصلون فيه بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء وباعوا الحرم ، كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالا »[١٠٨] .

كما انتقد غمارة — احدى قبائل المصامدة — التى كانت تسكن فى بلاد الريف من سبتة الى مرسى أنزلان وتمتد ديارها جنوبا حتى قرب فاس فقال ان « الله طهر منهم الأرض وأفنى جمعهم وخرب ديارهم لكثرة ذنوبهم وضعف اسلامهم وكثرة جرأتهم واصرارهم على الزناء .. وقتل النفس بغير الحق »[١٠٩] .

ومع ذلك فلم يشر الادريسى اطلاقا الى دين برغواطة أو الى عقيدتها ولم يذكرها لا بكثير أو قليل ، رغم أن ما كتبه ابن حوقل والبكرى عن هذه الديانة كان متاحا له ، بدليل أن من أتى بعده مثل ابن عذارى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى وابن خلدون الذى عاش فى القرن التالى

---

(١٠٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٨

(١٠٧) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٠

(١٠٨) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٤

(١٠٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٣٢

نقلا ما قاله ابن حوقل والبكرى ، مما يدل على أن الادريسى كان فى مكنته أن ينقل عنهما كما نقل ابن عذارى وابن خلدون ، ولكنه هو ومن سبقوه ممن أشرنا اليهم لم يفعلوا ، ليس لأن أخبار بنى صالح وبرغواطة كانت مغيبة عنهم ، ولكنهم رأوا — على الأرجح — أنه من غير المجدى أن يتحدثوا عن هذه الأخبار اما لأنها مختلقة أو غير قابلة للتصديق أو غير جديرة بالذكر والتدوين .

ثانيا — يضاف الى ذلك هذا التضارب الذى ورد عند ابن حوقل والبكرى وابن عذارى فى أمر نسبة هذه الديانة ، فتارة ينسبونها الى طريف بن مالك كما أشار بذلك ابن عذارى[١١٠] ، وتارة أخرى ينسبونها الى صالح بن طريف كما قال بذلك ابن حوقل[١١١] والبكرى[١١٢] غير أن البكرى يزيد فى أمر هذا التضارب حين يأتى بروايتين متناقضتين فيما يتعلق بمبتدع هذه الديانة ، احداهما استقاها عن أبى صالح زمور ابن موسى بن هشام البرغواطى صاحب الصلاة لدى حكام برغواطة وتامسنا من بنى صالح والذى وفد على الحكم المستنصر الخليفة الأموى بالأندلس فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م رسولا من قبل صاحب برغواطة وملك تامسنا المسمى أبا منصور عيسى ، فقد أخبر هذا الرسول عن طريق المترجم الذى صحبه أن هذه الديانة تنسب الى صالح بن طريف (١٣١ — ١٧٨ هـ / ٧٤٨ — ٧٩ م) الذى « تنبأ وشرع لهم الديانة التى هم عليها الى اليوم »[١١٣] .

أما الرواية الثانية فتشير الى أن مبتدع هذه الديانة هو يونس حفيد صالح بن طريف والذى حكم فى الفترة (٢٢٨ — ٢٧١ هـ /

---

(١١٠) البيان المغرب جـ ١ ص ٥٧

(١١١) صورة الأرض ص ٨٢

(١١٢) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٣٥

(١١٣) المصدر السابق ص ١٣٤ ، ١٣٥

٨٤٢ ــ ٨٨٤ م) . وقد استقى البكرى هذه الرواية منن أبى العباس فضل بن مفضل بن عمرو المذحجى الذى قال « ان يونس القـائم بدين برغواطة أصله من شذونة من وادى بربط (بالأندلس) وكان قد رحل الى المشرق فى عام واحد مع عباس بن ناصح وزيد بن سـنان الزناتى صاحب الواصلية ، وبرغوث بن سعيد الترارى وجد بنى عبد الرزاق ويعرفون ببنى وكيل الصفرية ، ومناد صاحب المنادية المنسوب اليـه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة ، وآخر ذهب عنى اسمه ، فأربعة منهم فقهوا فى الدين وادعا (كذا) ثلاثة منهم النبوة منهم يونس صاحب برغواطة »(١١٤) .

ويضيف البكرى قائلا ان « يونس شرب دواء الحفظ فلقن كل ما سـمع وحفظه وطلب علم النجوم والكهانة والجان ونظر فى الكـلام والجدال وأخذ ذلك عن غيلان ، ثم انصرف يريد الأندلس فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة ، فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها مما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريبا منه ، فعظم عندهم ، فلما رأى ذلك منهم وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته ودعـا الى نبوته وسمى من اتبعه بربطى لـما كان من بربط ، ثم أحالوه بألسنتهم وردوه الى لغاتهم فقالوا برغواطى »(١١٥) .

ثم يأتى بعد ذلك فضل بن مفضل بشعر رواه عن شخص من مصمودة فى عهد أبى عفير الذى حكم فى الفترة (٢٧١ ــ ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ ــ ٩١٢ م) يدل على أن يونس هو صاحب هذه الديانة حيث يقول هـذا الشـاعر(١١٦) :

سيعلم قوم تامسـنى اذا ما أتوا يوم النشـور مهيمنينا
هنـاك يونس وبنـوا أبيـه يقـودون الـبرابر مهطعينـا

(١١٤) المصدر السابق ص ١٣٧
(١١٥) المصدر السابق ص ١٣٧ ، ١٣٨
(١١٦) المصدر السابق ص ١٣٨

ونفس الكلام الذى أورده البكرى عن رحلة يونس الى بلاد المشرق وعن دراسته لعلم النجوم والكواكب أورده ابن حوقل بالنسبة لجده صالح بن طريف ، وقال ان صالحا دخل العراق ودرس شيئا من النجوم وصلحت منزلته فى علمها الى أن قوم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب فى أكثر أحكامه »(١١٧) ، مما يدل على خلط كبير بين طريف ابن مالك وابنه صالح بن طريف ، ويونس بن الياس بن صالح عند أقدم من أشاروا الى أمر هذه الديانة وهما ابن حوقل والبكرى ، ويدل بالتالى على أن هذه الديانة لا يعرف مبتدعها أو مؤسسها على وجه التحديد وعلى وجه اليقين والتأكد ، فهو مرة طريف بن مالك ، ومرة ثانية ابنه صالح ابن طريف ، ومرة ثالثة يونس حفيد صالح بن طريف .

كما يفهم من الرواية الأولى التى أوردها البكرى والتى أسندت أمر هذه الديانة الى صالح بن طريف أن صالحا هذا لم يظهر هذه الديانة وأوصى بها ابنه الياس بعد أن علمه شرائعه وفقهه فى دينه وأمره ألا يظهر هذا الدين الا اذا صار حاكما قويا وأمن جيرانه والملوك المحيطين به ، حينئذ يمكنه أن يدع الى نحلته أو ملته ويقتل من خالفه ، ثم تركه بعد أداء هذه النصيحة وخرج الى المشرق(١١٨) ، فتولى الياس الأمر بعد خروج أبيه وأظهر ديانة الاسلام وأسر ما عهد به أبوه اليه خوفا وتقية(١١٩) حتى مات بعد أن ملك خمسين عاما ، وتولى الأمر بعده ابنه يونس (٢٢٨ — ٢٧١ هـ / ٨٤٢ — ٨٨٤ م) فأظهر هذه الديانة ودعا اليها وقتل من لم يدخل فيها(١٢٠) .

ومعنى ذلك أن أمر ديانة برغواطة ظل طى الخفاء والكتمان

---

(١١٧) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٨٢

(١١٨) البكرى : نفس المصدر ص ١٣٥

(١١٩) المصدر السابق ص ١٣٦

(١٢٠) المصدر السابق ونفس الصفحة .

مدة بلغت قرنا من الزمان أو أكثر من قرن ، اذ أن صالح بن طريف تولى أمر برغواطة وبلاد تامسنا فى عام ١٣١ هـ / ٧٤٨ م وحكم حتى عـام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م ، وتولى حفيده يونس حكم هذه البلاد فى عام ٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م وظل يحكمها حتى مات فى عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م • ومن الواضح أن ديانة لا يمكن أن يظل أمرها سرا مكتوما طوال هذه المدة الكبيرة بحيث لا يدرى بها أحد من الناس سـواء من الحكام والملوك المجاورين لهم أو من الأهالى العاديين ، فلم نعلم هذا الأمر فى تاريخ الديانات أو فى تاريخ العقائد والمذاهب سواء الدينية أو حتى الاجتماعية أو السياسية •

ثالثا ـ وهذا يجرنا الى موقف الدول المجاورة من هـذه الديانة وأتباعها فيما لو صح ما قاله ابن حوقل والبكرى عنها • فلو وجدت مثل هذه الديانة وصح ما قاله البكرى من أن أمرها لم يظهر الا فى عهد يونس (٢٢٨ ـ ٢٧١ هـ / ٨٤٢ ـ ٨٨٤ م) لعرفنا أن الدول المجاورة لبـلاد تامسنا التى كانت مهد هذه الديانة تتمثل فى دولة الأدارسة التى كانت قد قامت فى بلاد المغرب الأقصى منذ عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وظلت فى حكمه كله أو بعضه حتى عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م حتى تم القضـاء عليها وتتمثل أيضـا فى الدولة الفاطمية التى كانت قد قامت فى بلاد افريقية والمغرب الأوسط منذ عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، كما تتمثـل فى الأمويين الذين قامت دولتهم فى بلاد الأندلس منذ عام ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م •

ومعروف أن الفاطميين والأمويين ظلوا يتصارعون حول السيطرة على بلاد المغرب الأقصى ويصطدمون بالأدارسة مرة بعد أخرى ويحاول كل منهما السيطرة عليهم وعلى بلادهم ، مما أدى الى ضعفهم والى بروز قوى محلية من البربر تتمثل فى ملوك فاس من زناتة الذين كان يقف على رأسهم موسى بن أبى العافية[١٢١] ، وتتمثل فى ملوك تامسنا من بنى صالح بن طريف من برغواطة المصمودية والذين أسسوا دولتهم حتى قبل أن تظهر دولة الأدارسة أو دولة الأمويين أو دولة الفاطميين •

---

(١٢١) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٦ ، جـ ٦ ص ٢١٦، ٢١٧

وقد سبق القول أن الأدارسة استطاعوا أن يستكملوا حركة نشر الاسلام بين قبائل البربر فى المغرب الأقصى[١٢٢] ، وبسطوا حكمهم وسلطانهم على هذه البلاد وخاصة فى الفترة الأولى من حكمهم والتى امتدت من عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م الى وفاة على بن محمد بن ادريس الثانى فى عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م[١٢٣] . وقد وصل نفوذهم حتى سجلماسة فى عصر اليعقوبى الذى توفى عام ٢٧٢ هـ / ٨٩٥ م[١٢٤] ، وجاوز هذا النفوذ بلاد المغرب الأقصى الى الصحراء الكبرى التى تفصل بلاد المغرب عن بلاد السودان[١٢٥] .

كما سبقت الاشارة الى أن ادريس الأول مؤسس دولة الأدارسة فتح بلاد تامسنا[١٢٦] مهد دولة بنى صالح ومقر قبيلة برغواطة ، كما أن حفيده محمد بن ادريس الثانى بعد أن تولى حكم بلاد المغرب الأقصى فى عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م وزع هذه البلاد على اخوته ، فكانت بلاد تامسنا من نصيب أخيه عيسى ، ولما خرج عيسى على أخيه محمد مطالبا بحكم البلاد كلها بعث محمد أخاه عمر لقتاله فأوقع به عمر وغلبه على ما فى يده من بلاد وضمها الى بلاده التى اتسعت حتى شملت الريف البحرى كله والتى امتدت من تكيتاش وبلاد غمارة الى سبتة وطنجة والبلاد التى تمتد على ساحل المحيط الأطلسى مشتملة على سلا وأزمور وبلاد تامسنا[١٢٧] ، وظل عمر فى حكم هذه البلاد حتى مات فى عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م فعقد الأمير محمد على عمله لولده على بن عمر[١٢٨] الذى ظل فى حكم هذه

---

(١٢٢) انظر : ص ٢٤ ، ٢٥

(١٢٣) ابن خرداذبة : نفس المصدر ص ٨٩

(١٢٤) اليعقوبى : نفس المصدر ، ص ١٢١

(١٢٥) حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٢٦

(١٢٦) انظر : ص ٢٤

(١٢٧) ابن خلدون : نفس المصدور جـ ٤ ص ١٤

(١٢٨) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤

البلاد فيما بقى من مدة حكم الأمير محمد الذى توفى عام ٢٢١هـ/٨٣٦م وطوال عهد ابنه على (٢٢١ — ٢٣٤ هـ / ٨٣٦ — ٨٤٨ م) وعهد أخيه يحيى بن محمد الذى حكم من عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ولمدة غير معروفة ، ثم فى عهد ابنه يحيى بن يحيى الذى أساء السيرة فثار الناس عليه واستدعوا ابن عمه على بن عمر صاحب بلاد الريف ، فجاء الى فاس ودخلها وبايعوه واستولى على أعمال المغرب(١٢٩) .

ومعنى ذلك أن بلاد تامسنا كانت فى طاعة ملوك الأدارسة ثم فى طاعة أمرائهم الذين يحكمون من قبلهم والذين يتمثلون فى عيسى بن ادريس الثانى ، وعمر بن ادريس الثانى ، وابنه على بن عمر ، والواقع أن هذه الطاعة كانت طاعة اسمية أو شكلية بدليل قيام ملك وراثى لبنى صالح فى تامسنا كان موجودا قبل قيام دولة الأدارسة نفسها بحوالى نصف قرن من الزمان ، وظل موجودا بعد نهاية دولة الأدارسة بحوالى قرن من الزمان .

والراجح أن بنى صالح اعترفوا للأدارسة أثناء عصر قوتهم بهذه الطاعة الاسمية على أن يتركوهم يحكمون بلادهم حكما مستقلا تماما عن أى نفوذ ادريسى ، وسواء كان بنو صالح مستقلين استقلالا ذاتيا أو استقلالا تاما عن الأدارسة فهل كان فى مكنتهم أن يبتدعوا ديانة جديدة تخالف عقائد الاسلام ، وأن يظلوا على هذه الديانة طوال عهد دولة الأدارسة دون أن يتعرض الأدارسة لهذه العقيدة ولهذه الدولة بالقتال حتى يسود الاسلام كل أرض بلاد المغرب الأقصى ، خاصة وأن المؤرخين وكما سبق القول يشيرون الى أن هؤلاء الأدارسة كانوا دعاة الى الاسلام ، وهم الذين استكملوا حركة نشره فى هذه البلاد .

من المستبعد تماما أن يترك الأدارسة دينا مثل دين برغواطة ينمو ويتسع ، ويحارب القائمون عليه المدن المجاورة ويقتلون أهلها اذا لم

---

(١٢٩) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤ ، ١٥

يدخلوا فى هذه الديانة ، فقد ذكر البكرى أن يوسى حارب أكثر من ٣٨٧ مدينة وحمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم اياه وقتل منهم سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا فى موضع يقال له (تاملوكاف) ، وقتل من صنهاجة فى وقعة واحدة الآلاف المؤلفة(١٣٠) . كما قام ابن أخيه أبو عفير الذى تولى بعده حكم بلاد تامسنا (٢٧١ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ — ٩١٢ م) بمحاربة جيرانه فى وقائع مشهورة منها وقعة استمرت ثمانية أيام قتل فيها أبو عفير عددا هائلا من الناس حتى فاضت الطرق بدمائهم(١٣١) .

هذا فى الوقت الذى لم نسمع فيه عن قيام قتال بين بنى صالح وبين الأدارسة سواء فى فترة قوة هؤلاء الأدارسة(١٣٢) ، أم فى عهد ضعفهم حينما تسلط عليهم الفاطميون مرة وتسلط عليهم الأمويون مرات الا فى بعض الأوقات(١٣٣) التى هاجم فيها الأدارسة بنى صالح . ولم تكن هذه الهجمات القليلة أو النادرة التى لم يذكر عنها المؤرخون أى تفصيلات بسبب المخالفة فى الدين أو المذهب بقدر ما كانت بسبب اهتمام الأدارسة بفرض نفوذهم على كل بلاد المغرب الأقصى ، وبسبب تصميم أهل تامسنا الأشداء على الاستقلال ببلادهم والمحافظة على كيانهم ودولتهم ، يفسر ذلك ما قاله ابن حوقل من أن « بلدهم مستقل بنفسه عن الحاجة الى ما فى غيره ، لأنهم أهل شدة وبأس وصبر على القلاء والمراس »(١٣٤) .

فهى أذن حرب سياسية وليست حربا من أجل الدين . وعلى كل حال فقد كانت هذه الحرب لا تأخذ صفة الدوام والاستمرار ، فقد ثارت

---

(١٣٠) البكرى : نفس المصدر ص ١٣٦

(١٣١) المصدر السابق ص ١٣٦

(١٣٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٧ ص ٧١

(١٣٣) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٨٣

(١٣٤) المصدر السابق ص ٨٣

مرة أو مرتين ولم تلبث أن انتهت وحل السلام والوئام بين الفريقين ، بدليل ما أشار اليه ابن حوقل نفسه من قيام علاقات تجارية بين بنى صالح وفاس فى عهد الأدارسة حيث قال ان أهل « مدينة فاس — كانوا — يغزونهم فى بعض الأوقات ويسالمونهم ويتاجرونهم ويجلبون اليهم التجارات على ما يرونه ولاتهم »(١٣٥) .

ونفس هذه العلاقات التجارية قامت أيضا بين بنى صالح وبين بقية بلاد المغرب الأقصى حيث أشار ابن حوقل الى أن « أهل أغمات والسوس يصلون اليهم أيضا بالتجارة ، كذلك قامت علاقات تجارية بين بنى صالح وبين دولة بنى مدرار الصفرية فى سجلماسة(١٣٦) . ولما حاول أحد حكام هذه الدولة وهو محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله محاربتهم ودعا الى غزوهم فى عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م لم يستجب له الا عدد قليل من البربر لا يستطيع أن يقوم بهذا الغزو وربما « خوفا من اطراد حيلة لمحمد بن الفتح عليهم فى ذلك »(١٣٧) .

وكذلك لم نسمع أن الفاطميين قاموا بغزو بلاد تامسنا بسبب أن هذه البلاد كانت تقوم فيها دولة كافرة أو مرتدة ، بل بسبب الصراع والتسابق بينهم وبين الأمويين حول السيطرة على بلاد المغرب الأقصى برمتها ومنها بلاد تامسنا ، لأنه لم يرد فى المصادر الفاطمية ما يؤيد ذلك أو يشير اليه .

أما علاقات بنى صالح بالأمويين فى بلاد الأندلس فأمر ثابت . فالعلاقات الدبلوماسية والمودة والصداقة بين الفريقين كانت أمرا معروفا وقائما منذ قيام دولة بنى صالح فى تامسنا وقيام دولة الأمويين فى الأندلس . فعلاقات المودة بينهما كانت استراتيجية اتبعها بنو صالح

---

(١٣٥) المصدر السابق ص ٨٣
(١٣٦) المصدر السابق ص ٨٣
(١٣٧) المصدر السابق ص ٨٣

منذ أن قامت دولتهم لموازنة علاقتهم بالقوى الأخرى المحيطة بهم من أدارسة وفاطميين ومدراريين وغيرهم ، وتوفيرا لقدر من الحماية يطمئن بني صالح من خطر هذه القوى اذا ما فكرت في غزو بلادهم ، ولذلك لم نسمع كما قلنا عن غزوات مدمرة أو غزوات تأخذ صفة الدوام والاستمرار قامت بها هذه القوى ضد بني صالح حتى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، أي بعد قرنين ونصف قرن من قيام دولتهم .

وقد أشار البكري الى هذه الاستراتيجية حينما قال ان صالح بن طريف وهو ثاني ملوكهم أوصى ابنه الياس « وأمره بموالاة أمير الأندلس » ، وذلك عندما ترك صالح حكم بلاد تامسنا وخرج الى المشرق[١٣٨] . ويتكرر هذا الأمر في عهد سادس ملوكهم وهو عبد الله أبو الأنصار (٣٠٠ — ٣٤١ هـ / ٩١٢ — ٩٥٢ م) الذي أوصى ابنه أبا منصور عيسى قبل موته « بموالاة صاحب الأندلس »[١٣٩] .

ويبدو أن أمر هذه التوصية بهذه الموالاة كان أمر تقليديا حتى قال البكري أن جميع المرشحين لتولي ملك بلاد تامسنا كانوا يوصون بذلك[١٤٠] . ووفادة زمور من قبل أبي منصور عيسى ملك تامسنا الى الحكم المستنصر الأموي في عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م خير دليل على ذلك[١٤١] ، بل ان البكري وكما سبق القول أشار في احدى رواياته الى أن بني صالح بربر أتوا من وادي برباط بالأندلس الى تامسنا وكانوا قد سكنوا الأندلس بعد فتحها ولذلك سموا برباطيين ، وتحرفت هذه الكلمة برغواطيين[١٤٢] .

---

(١٣٨) البكري : نفس المصدر ص ١٣٥ ، ابن عذاري : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٢٤.
(١٣٩) البكري : نفس المصدر ص ١٣٧
(١٤٠) المصدر السابق ص ١٣٧
(١٤١) المصدر السابق ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ابن عذاري : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٢٣
(١٤٢) البكري : نفس المصدر ص ١٣٧

فالعلاقات بين بنى صالح البرغواطيين وبين الأمويين فى الأندلس كانت قديمة وقوية ومتصلة وليس من المعقول أن يقبل الأمويون بهـذه العلاقة اذا ما كان بنو صالح مرتدين عن الاسلام حسب قول ابن حوقل والبكرى ومن تابعهما من المؤرخين اللاحقين ، وليس من المعقول أيضا أن يخبر رسول ملك تامسنا خليفة الأندلس عند وفادته اليه فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م بأمر هذه الديانة التى تعتبر دون شـك خروجا عن الاسـلام وردة عنه ، لأن هذا الأمر يعرض صاحبه الى القتل . فحكم المرتد هو الاستتابة أولا فان لم يتب يقام عليه الحد ويقتل على الفور كما هو معروف فى الفقه الاسلامى .

وطبيعى أن رسول ملك تامسنا كان يعلم بهذا الحكم لأن الاسـلام لم يكن حديث العهد ، بل كان قد مر عليه ٣٥٢ سـنة فى ذلك الحين . واذا كان علم هذا الرسول بهذا الأمر شيئا مفروغا منه فاننا نتساءل : ألم يخش هذا الرسول هو ومن صحبه فى هذه السفارة على أنفسهم من اقامة الحد عليهم اذا ما خبروا خليفة الأندلس بدياناتهم وردتهم على النحو الذى أشـار اليه البكرى ؟ ! ومع ذلك فاننا لم نسمع ولم تشر المصادر الى استتابة هذا الرسول ، ولا الى اقامة الحد عليه وعلى أصحابه الذين كانوا معه . بل على العكس من ذلك تحكى المصادر عن قيـام علاقات الود والصداقة بين الفريقين ، وعن قيـام علاقات تجارية وطيدة بينهما استمرت طوال عهد حكم بنى صالح فى تامسنا .

ويفصل الادريسى أمر هذه العلاقات التجارية فيشير الى كثرة الزروع والمحاصيل والمواشى التى كانت تفيض عن حاجة أهل تامسنا فيصدرون فائضها الى بلاد الأندلس[١٤٣] . كما يشـير الى عـدد كبير من الموانى الساحلية التى قامت فى بلاد تامسنا وكان لهـا نشاط تجارى كبير مع بلاد الأندلس ، مثل ميناء سلا التى كانت تستقبل التجار القادمين من اشبيلية

---

(١٤٣) الادريسى : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

وسائر المدن الساحلية الأندلسية الذين كانوا يقلعون منها محملين بسائر السلع والبضائع المختلفة ، وكان أهل أشبيلية يقصدونها محملين بالزيت الكثير الذى كانوا يتجرونه فى بلادهم ويعودون منها بالطعام الى سائر بلاد الأندلس الساحلية(١٤٤) .

ويشير الادريسى أيضا الى ميناء فضالة الذى يقع فى بلاد تامسنا الى الجنوب من ميناء سلا وعلى بعد اثنى عشر ميلا منه فيقول ان السفن الأندلسية كانت ترد الى هذه المدينة « فتحمل منها أوساقها طعاما حنطة وشعيرا وفولا وحمصا وتحمل منها الغنم أيضا والمعز والبقر »(١٤٥) . وكذلك كان الحال مع مينا آنفا الذى كان « مرسى مقصودا تأتى اليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير »(١٤٦) .

والطريف أن ميناء آسفى لم يحمل هذا الاسم الا بسبب نشاط الأندلسيين البحرى الذى وصل الى هذه المنطقة من بلاد تامسنا . فيذكر الادريسى أن جماعة من مدينة لشبونة التى تقع فى غربى الأندلس أبحرت فى بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) لاستكشافه ووصلوا الى جزيرة فيه تسمى جزيرة الغنم لم يلبث ملكها أن قبض عليهم وأرسل بهم مغمضى العيون فى سفينة ألقت بهم على بر يسكنه البربر ، فقال لهم أحد هؤلاء البربر : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقال البحارة المغررون : لا ، فقال لهم البربر : ان بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقال رئيس البحارة : واأسفى ، فسمى المكان الذى كانوا به آسفى ، وهو المرسى الذى يحمل هذا الاسم الى اليوم(١٤٧) .

وعلى ذلك فالعلاقات الدبلوماسية والعلاقات التجارية كانت قائمة على قدم وساق بين بلاد تامسنا فى عهد بنى صالح وبين بلاد

---

(١٤٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٣٩
(١٤٥) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠
(١٤٦) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٤٠
(١٤٧) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٥٤٨ — ٥٤٩

الأندلس ، مما ينفى أمر هـذه الردة التى كانت لا بد وأن تنتج عن هـذه الديانة التى أشـار اليها ابن حـوقل والبكرى . وحتى على فرض أنهم ارتدوا ، فهل يمكن أن يستمر هذا الوضع طوال قرون من الزمان ؟! ، ذلك أننا عرفنـا أن دولتهم قامت فى بلاد تامسـنا فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، واستمرت أكثر من ثلاثة قرون ، فهل من الطبيـعى ومن المنطقى أن تعيش دولة كافرة ومرتدة كل هذه الفترة الطـويلة بين دول وأراضى وقبـائل اسلامية تحيط بها من جميع الجهات ؟ وهـل من المعقول أن تنطلق دعوة الاسـلام من المغرب الأقصى الى حوض نهرى السـنغال والنيجر وتتسرب الى هذه البلاد منذ القرن الثـالث الهجرى على الأقل وتترك خلفها فى تامسـنا دولة مرتدة وكافرة ؟ ألم يكن من الأولى أن يكرس الدعاة جهودهم لنشر الاسـلام فى تامسنا ويعيدوا أهلها الى الاسـلام قبل أن ينشروه بين برير الصحراء وسودان السـنغال والنيجر ؟

رابعا — أما قصة التنبؤ وادعاء النبوة الذى نسب الى بنى صالح والذى أشـار اليه ابن حوقل والبكرى فهو أمر يمكن تفسيـره والرد عليـه بأن بنى صالح اشتغلوا بالكهانة والسـحر ودرسـوا علم النجوم والكلام والجـدل ونبغوا فى ذلك ، مما حمـل البكرى نفسـه لأن يقول ان « برغواطة صـارت أعلم الناس بالنجوم وأحذقهم بالقضـاء بهـا »[١٤٨] ، وكانوا يخبرون البربر بأشـياء قبل أن تحدث مما تدل عليه النجوم عندهم[١٤٩] ، فاعتقد هؤلاء البربر الذين كانوا على شيء كثير من الجهل والسذاجة بأنهم مثل الأنبياء يخبرون ببعض الأشـياء قبل أن تقع وتحـدث ، واستغل أعـداء بنى صـالح هـذه الفرصـة ودمغوهم بهذه التهمة وأشـاعوا عنهم هذا القول ، خاصة وأنهم كانوا مخالفين لهم فى المذهب ، فابن حوقل معروف عنه أنه شـيعى الهوى ،

(١٤٨) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٤٠
(١٤٩) المصدر السـابق ، ص ١٣٧ — ١٣٨

والبكرى كان سنيا مالكى المذهب ، بينما كان بنو صالح وقومهم من برغواطة ليسوا على مذهب الشيعة وليسوا على المذهب المالكى ، وانما كان لهم مذهب آخر سوف نتحدث عنه .

وأمر الطعن فى الأنساب والمذاهب والشخصيات العامة التى أسست دولا أمر معروف فى التاريخ الاسلامى . والمثال على ذلك ما قيل عن الحسن بن جنون الأصغر ، وهو علوى حسنى من ولد ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد ذكر ابن حزم أنه ادعى النبوة باحدى كور المغرب الأقصى ، وهى كورة تيدلا التى تعرف فى عهده بكورة تادلا[١٥٠] . فهل يمكن أن نصدق أن أحد أفراد البيت العلوى الهاشمى الذين قضوا حياتهم فى المطالبة بحقهم فى الخلافة من الأمويين ثم من العباسيين ينحدر الى هذا المستوى ويعلن عن نبوته ويسم نفسه وأهل بيته بهذه السمة التى تسقط حقهم وتصرف الناس عنهم وتدمغهم بالكفر والالحاد .

واذا كان قد قيل هذا القول عن أحد أفراد البيت العلوى الهاشمى فليس من المستغرب أن نجد نفس القول أو نفس الدعوى تنسب الى بعض أفراد البيت المالك من بنى صالح حكام تامسنا وزعماء برغواطة . وليس من المستغرب أيضا أن نرى أحد المؤرخين يشكك فى أصلهم ونسبهم فيقول عنهم أنهم من أصل يهودى[١٥١] ، وقد سبق تفنيد هذا القول[١٥٢] ، ومع ذلك فالتشكيك فى الأنساب أيضا أمر معروف ، وأشهر مثال على ذلك هو ما قيل عن نسب الفاطميين حتى سماهم البعض بالعبيديين نسبة الى عبيد الله أول خلفائهم[١٥٣] ولم يسمهم بالفاطميين نسبة الى فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

---

(١٥٠) ابن حزم : نفس المصدر ، ٤٩
(١٥١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥
(١٥٢) انظر : ص ٣٢ — ٣٤
(١٥٣) القلقشندى : نفس المصدر ، ص ١٦٤

والحقيقة أن الطعن الذى تعرض له بنو صالح حتى وصفوهم بادعاء النبوة وأخرجوهم من ربقة الاسلام وجعلوهم مرتدين كفرة ليس الا نتيجة لشيئين : أولاهما هو اعتناق القوم لمذهب مخالف ومعارض للمذهب أو المذاهب المنتشرة والمسيطرة على عقول الناس وتفكيرهم فى بلاد المغرب . وثانيهما هو حب القوم فى تامسنا للحرية والاستقلال عن أى سلطة تحاول فرض نفوذها على بلادهم .

أما المذهب المخالف الذى اعتنقه بنو صالح فهو المذهب الخارجى الصفرى الذى كان يبيح لأصحابه قتال مخالفيهم وسبى ذراريهم ونسائهم واستحلال أموالهم ، ولذلك وصمه أصحاب المذاهب الأخرى بالكفر[١٥٤] ، وهو أمر معروف فى تاريخ المذاهب الاسلامية .

فالقوم اذن كانوا من الخوارج الصفرية . وقد انتشر هذا المذهب انتشار النار فى الهشيم منذ بداية القرن الثانى للهجرة فى بلاد المغرب وخاصة المغرب الأقصى نظرا لتطرفها وبعدها عن مركز الخلافة سواء فى دمشق أم فى بغداد ، ونظرا للطبيعة الجغرافية التى تتمتع بها هذه البلاد والتى توفر الملاذ والملجأ الآمن لثوار الصفرية اذا ما داهمتهم قوات الخلافة ، ولذلك تركز الصفرية فى بلاد المغرب الأقصى بصفة خاصة واستطاعوا أن يقوموا منها بثوراتهم التى اشتعل أوارها منذ عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م وتمكنوا من هزيمة جيش الخلافة الأموية فى مواقع مشهورة أشار اليها ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين وسبقت الاشارة اليها[١٥٥] .

كما سبقت الاشارة أيضا الى أن رأس بنى صالح وزعيمهم ومؤسس

---

(١٥٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢١٩ — ٢٢٣ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، الرقيق القيروانى : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

وعن مذهب الخوارج الصفرية ، انظر :ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، جـ ٥ ص ٥٣ ، ٥٤ ، عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٠ — ٧٢ ، محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية ، ص ١٣١ .

(١٥٥) انظر : ص ٤٤

دولتهم وهو طريف بن مالك كان أحد زعماء الصفرية ، وكان من كبار أصحاب ميسرة المطغرى الذى أشعل نار الثورة ضد بنى أمية فى طنجة وبلاد الريف فى عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م وحارب طريف الى جانب ميسرة أثناء هذه الثورة التى امتد نفوذها حتى القيروان • ولما هزم الصفرية وانحسر نفوذهم عن افريقية والمغرب الأوسط انسحب طريف الى بلاد تامسنا وأقام فيها دولة لقومه من البربر الذين التف حولهم عدد من القبائل الأخرى وذلك فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، كما انسحب صفرية آخرون الى سجلماسة وأقاموا فيها دولتهم منذ عام ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م •

والدلائل الأخرى على أن بنى صالح وقومهم من برغواطة وغيرهم من القبائل الأخرى التى دانت لهم بالطاعة كانوا صفرية ، ذلك الشعر الذى أورده البكرى(١٥٦) ورواه عنه ابن عذارى(١٥٧) ، وابن خلدون(١٥٨) على لسان فضل بن مفضل نقلا عن شاعر من المصامدة الذين تنتسب اليهم برغواطة وبنو صالح • اذ قال ذلك الشاعر وهو سعيد بن هشام المصمودى ينعى على بنى صالح ما فعلوه فى موقعة بهت التى راح ضحيتها آلاف الضحايا :

ألم تسمع ولم تر يوم بهت   على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات فبين ثكلى(١٥٩)   وعاوية ومسقطة جنينا
سيعلم قوم تامسنى(١٦٠) اذا ما   أتوا يوم النشور مهيمنينا
هنالك يونس وبنو بنيه   يقودون البرابر مهطعينا(١٦١)

---

(١٥٦) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٨
(١٥٧) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٦
(١٥٨) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٨
(١٥٩) بهم ثكالى ، عند ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٢٦
(١٦٠) تامسنا عند ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٨ ، كما جاء عنده أيضا يوم القيامة مهطعينا ، وقد سقط هذا البيت عند ابن عذارى.
(١٦١) ورد هذا البيت عند ابن عذارى ، جـ ١ ص ٢٢٦ ، على هذا النحو :
هنالك يونس وبنو أبيه   بهم يوالوا البرابر معظمينا
وورد عند ابن خلدون (جـ ٦ ص ٢٠٨) على هذا النحو :
هنالك يونس وبنو أبيه   يقودون البرابر حائرينا

اذا ور يا ورى زمت عليه جهنم قايد المستكبرينا[١٦٢]
فليس اليوم ردتكم ولكن ليالى كنتم متميسرينا[١٦٣]

وقد علق البكرى على البيت الأخير بقوله ان « هذا البيت يصدق قول زامور البرغواطى ، وهو الرسول الذى كان أبو منصور عيسى ملك تامسنا قد أرسله الى الحكم المستنصر الأموى بالأندلس فى عام ٣٥٢ هـ أن طريفا كان من أصحاب ميسرة ويشهد له »[١٦٤] ، كما فسره ابن عذارى بأن قوله « مستيسرين » يعنى بأنهم كانوا من المياسرة ، أى أصحاب ميسرة المطغرى[١٦٥] زعيم الصفرية الذى سبقت الاشارة اليه .

فالشعر والتعليق عليه الذى ورد من البكرى نفسه يدلان بشكل قاطع على أن بنى صالح كانوا من الخوارج الصفرية . وقد قيل هذا الشعر اما فى عصر أبى عفير (٢٧١ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ — ٩١٢ م) الذى حدثت فى عهده موقعة بهت التى أشار اليها الشاعر ، أو فى عصر حفيده أبى منصور عيسى (٣٤١ — ٣٦٨ هـ / ٩٥٢ — ٩٧٨ م) الذى أرسل رسوله الى الحكم المستنصر فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . ذلك الرسول الذى أسند اليه ابن حوقل والبكرى ما ذكره عن بنى صالح وبرغواطة وعن مذهبهم وعقيدتهم ، مما يدل دلالة واضحة

(١٦٢) سقط هذا البيت عند ابن عذارى ، وورد عند ابن خلدون (جـ ٦ ص ٢٠٨) على هذا النحو :

اذا زر ياور طافت عليهم جبهتهم بايدى المنكرينا

(١٦٣) وردت كلمة مستيسرينا عند ابن عذارى (جـ ١ ص ٢٢٦) ، وورد عند ابن خلدون (جـ ٦ ص ٢٠٨) على هذا النحو :

فليس اليوم يومكم ولكن ليالى كنتم متميسرينـ

(١٦٤) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٨

(١٦٥) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٦

على أن القوم منذ أن قامت دولتهم على عهد جدهم الأكبر طريف بن مالك في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م حتى عصر هؤلاء الملوك كانوا على مذهب الصفرية .

ومما يدل على ذلك أيضا ، هذا التشدد الصارم المأثور عن الخوارج والذى نراه عندهم فى مسائل الأخلاق وكذلك فى العبادات . فابن حوقل نفسه يشير الى تقشفهم الشديد وزهدهم فى الدنيا فيقول إن أحد ملوكهم وهو أبو عفير « دعاهم الى النسك وترك الدنيا والاقبال على التقلل والزهد ، وتناهى هو وخاصته فى ذلك الى أن حفظ عليه صبره عن الغذاء خمسا (بضم الخاء) من الدهر وسبعا وتسعا »(١٦٦) . كما يشير ابن حوقل أيضا الى اتصاف برغواطة بالأمانة والكرم وبعدها عن الرذائل فيقول : « فى برغواطة أمانة وبذل للطعام وتجنب للكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام »(١٦٧) .

ويؤكد البكرى هذه الصفات فيقول عن أحد ملوكهم وهو الياس ابن صالح بن طريف أنه كان « طاهرا عفيفا لم يلتبس بشىء من الدنيا الى أن هلك بعد أن ملك خمسين سنة »(١٦٨) ، وأحرى بمن تكون هذه صفاته أن يملك هذا العدد الكبير من السنين . ولم يكن الياس وحده هو الذى ملك عددا كبيرا من السنين ، وانما معظم أفراد أسرته حكموا مددا كبيرة .

فوالده صالح بن طريف حكم أربعين عاما ، وابنه يونس ابن الياس حكم أربعة وأربعين عاما(١٦٩) ، وحكم أبو عفير محمد بن معاذ بن اليسع

---

(١٦٦) صورة الأرض ، ص ٨٣

(١٦٧) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٦٨) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٦

(١٦٩) المصدر السابق ونفس الصفحة .

ابن صالح بن طريف تسعا وعشرين سنة[١٧٠] ، وحكم ابنه عبد الله أبو الأنصار بن أبي عفير اثنين وأربعين سنة[١٧١] ، وحكم ابنه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار ثمانية وعشرين عاما[١٧٢] وكان معاصرا لابن حوقل ومات في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م[١٧٣] بعد موت ابن حوقل بعام واحد ولذلك لم يشر هذا الجغرافي الى موته .

وكما اتبع بنو صالح أسلوب الخوارج في التقشف والزهد في الدنيا ، فانهن أيضا اتبعوا أسلوبهم في التشدد في فرائض الوضوء ، فهم يرون في الوضوء غسل الصرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفاء وغسل الذراعين من المنكبين ومسح الرأس ثلاث مرات ومسح الأذنين كذلك ثم غسل الرجلين من الركبتين[١٧٤] . وهي نفس الأمور التي يتم بها الوضوء تقريبا عند أصحاب المذاهب الأخرى عدا هذا التشدد الظاهر في غسل السرة والخاصرتين وغسل الذراعين من المنكبين وغسل الرجلين من الركبتين .

كما أنهم غالوا كثيرا في أداء عدد كبير من الركعات . فقد كانوا يصلون خمس صلوات أثناء النهار ومثلها بالليل[١٧٥] . ويبدو أن صلوات الليل كانت تعويضا أو قضاء عما فات المرء منهم من صلوات كان قد فرط فيها أو لهى عنها كما فعل المرابطون بعد ذلك ، اذا كانوا يأخذون الناس بمضاعفة صلواتهم فيصلون أربع ركعات قبل صلاة الظهر وهكذا في باقي الصلوات للسبب الذى أشرنا اليه وأشار اليه البكرى نفسه[١٧٦] .

---

(١٧٠) المصدر السابق ، ص ١٣٦ — ١٣٧
(١٧١) المصدر السابق ، ص ١٣٧
(١٧٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٩
(١٧٣) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .
(١٧٤) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٩
(١٧٥) المصدر السابق ، ص ١٦٨
(١٧٦) المصدر السابق ، ص ١٣٩

كما أن بنى صالح وقومهم من برغواطة غالوا أيضا فى الصيام ؛ فكانوا يصومون يوما من كل أسبوع ويصومون « الجمعة الأخرى التى تليه أبدا »[١٧٧] ، كما صاموا شهر رجب[١٧٨] . وليس من المعقـول أنهم صاموه بدلا من شهر رمضان كما أشار البكرى[١٧٩] ، لأن القوم كانوا مسلمين على مذهب الصفرية ، ومذاهب الخوارج كلها حتى أعنفها وأكثرها تطرفا وتشـددا لم تفعل ذلك . والراجح أن سمة التشـدد فى العبادة والاستغراق فيها جعلتهم يصومون شهر رجب بجانب شـهر رمضـان .

ونفس التشدد والغلو نلاحظه عندهم أيضا فى العقوبات . فنرى القسوة واضحة فى معاقبـة المذنبين والجناة . فالسارق لا تقطع يده كما يأمر الشرع ، بل كان يعاقب بالقتـل اذا ما اعترف بالسرقة أو اذا كانت هناك بينة واضحة مؤكدة على قيامه بالسرقة[١٨٠] . والكاذب ينفى ويسـمونه المغير[١٨١] ، وهو تشـدد وغلو واضح فى هذه الناحيـة وفى غيرها من نواح تتصل بسلوكياتهم فى الطعام . اذ أن « رأس كل حيوان عليهم حرام ، والحوت لا يؤكل الا أن يذكى (أى يذبح) والبيض عنـدهم حرام والدجاج مكروهة الا أن يضطر اليها »[١٨٢] والديوك حرموا ذبحها لأنها تسـاعدهم فى معرفة الأوقات[١٨٣] . ويظهر أن ذلك

(١٧٧) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٧٨) المصدر السـابق ، ص ١٣٨

(١٧٩) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٠) المصدر السابق ، ص ١٣٩

(١٨١) المصدر السـابق ونفس الصفحة .

(١٨٢) المصدر السـابق ونفس الصفحة .

(١٨٣) المصدر السـابق ونفس الصفحة .

كان أثرا من آثار عاداتهم القديمة ، ولا زالت هذه العادات باقية عند بعض القبائل فى الجزائر وفى الصحراء(١٨٤) .

أما فى غير ذلك من الأمور فهم يسيرون فيها كما يسير المسلمون

---

(١٨٤) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٧ ص ٦٩ .

. يبدو ان التشدد والغلو الذى اتصف به بنو صالح من الصفرية لم يكن قاصرا عليهم وحدهم ، بل اتصف به غيرهم من البربر الذين اقاموا دولة المرابطين التى قضت عليهم . فالبكرى ينتقد المرابطين وزعيمهم الدينى عبد الله بن ياسين حين غزوهم لمدينة أودغست الاسلامية فيقول انهم « استباحوا حريمها وجعلوا جميع ما اصابوا فيها فيئا » ، وكانهم كفرة رغم كونهم مسلمين . كما أشار الى ما شذ فيه عبد الله ابن ياسين من الاحكام . من ذلك اخذه الثلث من الأموال المختلطة زاعما ان ذلك يطيب باقيها ويجعله حلالا ، واقامة الحدود بكافة أنواعها على من دخل فى دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه ، فكانوا يقولون له : « قد اذنبت ذنوبا كثيرة فى شبابك فيجب عليك حدودها وتطهر من اثمها » فكانوا يضربون الزانى مائة سوط والمفترى ثمانين سوطا ، وشارب الخمر مثلها وربما زادوا على ذلك ، وكذلك كانوا يفعلون بمن تغلبوا عليه وادخلوه فى رباطهم ولو علموا انه قتل قاموا بقتله سواء اتاهم تائبا طائعا او غلبوا عليه مجاهرا عاصيا ، فلا تنفعه توبته ولا تغنى عنه رجعته ، وكانوا يعاقبون من تخلف عن صلاة الجماعة بضربه عشرين سوطا ، ومن فاتته ركعة ضربوه خمسة أسواط ، كما كانوا يأخذون الناس بصلاة ظهر اربع ركعات قبل صلاة الظهر فى الجماعة وكذلك فى سائر الصلوات عوضا عما فرط فيه من صلوات فى سالف أيامه . ولذلك كان أكثر عوامهم يصلون بغير وضوء اذا اعجلهم الامر خوفا من الضرب والاهانة ، وكذلك كان يعاقب من رفع صوته فى المسجد بالضرب بقدر ما يراه الضارب له ، ويشير البكرى الى انهم كانوا يأخذون زكاة الفطر وينفقونها على انفسهم ، بهذه الأشياء الى جهل فقيههم الكبير عبد الله بن ياسين الذى أمرهم بهذه الأشياء فقال انه لم يستطع معرفة معنى « حاش لله » وضرب من قالها فى مجلسه .

انظر : البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص١٦٨ — ١٧٠ ولذلك وصفهم المهدى محمد بن تومرت الزعيم الدينى لدولة

الآخرون ، فالزانى عقوبته الرجم[١٨٥] ، والزكاة يأخذونها حسب الأنصبة الشرعية المعروفة ، فهم يأخذون العشر من جميع الحبــوب زكاة[١٨٦] ،

الموحدين التى خلفت دولة المرابطين بقوله انهم « المارقون المبدلون الذين تســموا بالمرابطين » .

انظر : المراكشى : تاريخ الأندلس المسمى بالمعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ١٠٦

واذا كان البكرى المعــاصر للمرابطين قـــد انتقــدهم وانتقــد زعيمهم الدينى ابن ياســين على النحو الذى رأيناه ، فقد قام المراكشى بنفس المهمة بالنسبة للموحدين الذين كان معاصرا لهم ، فجاء بأخبــار عن زعيمهم الدينى ابن تومرت تشــبه فى بعض النواحى ما جاء به البكرى من صـــالح بن طريف وعن حفيده يونس ، فقال عنه انه رحل الى المشرق عام ٥٠١ هـ ودرس الفقه وأصــول الدين والحديث ، كما درس علم الرمل والنجوم الذى كان « أوحــد أهل عصره فيــه » لأنه « وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفــاء بنى العباس ، أوصله الى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشــأن » .

ولمــا عاد بن تومرت الى بلاد المغرب الأقصى ووصل الى السوس اجتمع اليه وجوه المصــامدة « فألف لهم عقيــدة بلسانهم ، ودعاهم الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم انتسب الى النبى صلى الله عليــه وسلم ، وصرح بدعوى العصمة لنفســه ، وانه المهدى المعصوم ، وروى فى ذلك أحاديث كثيرة حتى اســتقر عندهم انه المهدى فبايعوه على ذلك ، وقال لأصحابه : منكم الأمير الذى يصلى بعيسى بن مريم ولا يزال الامر فيكم الى قيــام الساعة ، هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقــع أكثرها وكان يقول لو شئت ان اعــد خلفــاءكم خليفة خليفة . فزادت فتنــة القوم به واظهروا له شــدة الطاعة » .

انظر : المراكشى : تاريخ الأندلس المسمى بالمعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٩٩ — ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤

ولكن المراكشى لــم يرم المهــدى ابن تومرت بالردة أو الكفر لانه ادعى العصــمة وادعى علم الغيب ، ولم يرمه بصـــفات أخــرى تخرجه عن الاســـلام كمــا فعــل البكــرى مــع بنى صـــالح البرغواطيين ، لان ابن تومرت كان يدين بالمذهب الشــائع الغالب فى تلك البلاد وهو المذهب المــالكى السنى ، أما بنو صالح فكانوا مع قومهم من برغواطة من الخوارج الصفرية الذين كانوا كفارا فى نظر أهل السنة فى ذلك الحين .

(١٨٥) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٩

(١٨٦) المصدر الســابق ونفس الصفحة .

ويطلقون النساء ويراجعونهن(١٨٧) كما هو مألوف عند سائر أصحاب المذاهب الاسلامية الأخرى .

والصفات الاسلامية التى تؤكد اسلام بنى صالح وقومهم من برغواطة عديدة وكثيرة ، منها أنهم لم ينكروا نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا انه « صادق فيما أتى به من القرآن والأحكام »(١٨٨) ويقول ابن حوقل المعاصر لهم ان « فيهم الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ويحفظ منه السور »(١٨٩) . كما أنهم كانوا يتجنبون « الكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام » ، ويقبلون على « التنسك والزهد فى الدنيا » كما قال ابن حوقل(١٩٠) .

ويكفى فى ذلك ما قاله البكرى عن أول ملوكهم طريف بن مالك من أنه كان على ديانة الاسلام(١٩١) ، وما قاله أيضا عن ثانى ملوكهم صالح بن طريف من أنه « كان من أهل العلم والخير »(١٩٢) ، وما قاله عن ثالث ملوكهم الياس بن صالح من أنه كان « طاهرا عفيفا لم يلتبس بشىء من الدنيا »(١٩٣) ، وعن رابع ملوكهم يونس بن الياس من أنه رحل الى المشرق وحج(١٩٤) دون أن يخشى عقوبة المرتد فيما لو كان كذلك كما أن المرتد لا يحج ، وما قاله ابن حوقل عن خامس ملوكهم أبى عفير بن محمد بن معاذ بن اليسع من أنه كان متنسكا زاهدا تاركا للدنيا مقبلا على الآخرة متشددا

(١٨٧) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٨) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٨٢

(١٨٩) المصدر السابق ، ص ٨٣

(١٩٠) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٩١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥

(١٩٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٩٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦

(١٩٤) المصدر السابق ونفس الصفحة .

على نفســـه فى الطعـــام والشراب[١٩٥] ، ومـا قالــه البكرى عن سادس ملوكهم عبد الله أبى الأنصـار بن أبى عفـير من أنه كان « ســخيا ظريفـا يفى بالعهـد ويحفظ الجار ، ويكافىء على الهدية بأضعافها »[١٩٦] ، وعن ســابع ملوكهم أبى منصور عيسى بن عبد الله أبى الأنصار من أنه سار بسيرة أبيه[١٩٧] .

وعلى ذلك فان القـوم كانوا مسـلمين على مذهب الصفرية من الخوارج . ومعروف أن أصحاب هذا المذهب وغيره من مذاهب الخوارج الأخرى يرون أن الامامة أو الخلافة أو حكم المسلمين ليس قاصرا على قريش وحدها أو على العرب وحدهم ، وانما هو حـق مباح لســائر المسلمين اذا ما توافرت فيهم الصلاحية لتولى هـذا المنصب الخطير ، ولـما قاومهم بنو أمية وبنو العباس لهذا السبب بالذات توالت ثوراتهم وانسحب كثير منهم بعد هزيمتهم وعلى رأسهم طريف بن مالك الى بلاد تامســنا حيث أقاموا دولة لهم هنـاك تمتعت بالاستقلال طوال حكم الأدارســة (١٧٢ ــ ٣٧٣ هـ / ٧٨٤ ــ ٩٨٣ م) وحكم من أتى قبلهم أو بعدهم من حكام فى بلاد المغرب الأقصى .

ولم تكن تامســنا هى الوحيدة التى اتبعت المذهب الصـفرى فى هذه البلاد ، اذ نرى ابن خرداذبة يقـول ان درعة مدينة كبيرة كثيرة الأهل وأنها تحت ســيطرة الخوارج الصفرية[١٩٨] . ويقول المســعودى انه فى « هــذا الصــقع من بلاد المغرب ــ يقصـد بلاد المغرب الأقصى ــ خلق من الصـفرية الخـوارج لهم مـدن مسـكونة مثـل مدينــة ثرغيــة »[١٩٩] . ويشــير ابن عـذارى الى ثورة عبد الرازق

(١٩٥) صـورة الارض ، ص ٨٢ ، ٨٣
(١٩٦) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٧
(١٩٧) المصدر الســابق ونفس الصفحة .
(١٩٨) المسالك والممالك ، ص ٨٨
(١٩٩) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الكتــاب اللبنــانى ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ، جـ ١ ص ١٤٢

الصـــفرى فى القـرن الثـالث للهجـرة على الأمير الادريسى على ابن عمر بن ادريس الثانى ، والى نجاحه فى ثورته حتى استولى على فاس[٢٠٠] .

وهكذا استقرت الأمور للصفرية فى كثير من أنحاء المغرب الأقصى وخاصة فى بلاد تامسـنا وسجلماسه[٢٠١] ودرن ، وقنع الأدارسة بحكم فاس وما يحيط بها من مدن ونواح قريبة ، خاصـة بعـد أن ضـعف نفوذهم وتسلط عليهم الفاطميون من الشرق والأمويون من الشمال ، حتى اضطروا أخيرا الى الجـلاء عن فاس والنزوح الى بلاد الريف فى أقصى شمال المغرب الأقصى واستقروا فى قلعة تعرف بقلعة حجر النسر حتى أخرجوا منها وقضى عليهم نهائيا فى عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م[٢٠٢] .

كما قام صفرية المغرب الأوسط أيضا بمواصلة النضـال والثورة ضـد ولاة الخلافة فى افريقية والمغرب الأوسط لدرجة أنهم تمكنوا من التغلب على والى افريقية واقتحام القيروان عام ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م واحتلالها قرابة عامين[٢٠٣] ، كما تمكنوا بمساندة الأباضية من قتـل والى افريقيـة والمغـرب عمرو بن حفص بن قبيصـة المهلبى فى عـام ١٥٣ هـ / ٧٧٠ م[٢٠٤] ، مما دفـع حكام افريقية لقتالهم والتصدى لهم بعنف وشراسة ، واستمر قتال هؤلاء الحكام لهم فى عهد داود بن يزيد

---

(٢٠٠) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢١٢ .

(٢٠١) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٧١

(٢٠٢) ابن خلـدون : نفس المصـــدر ، جـ ٤ ص ١٧ ، جـ ٦ ص ٢١٧ ، ٢١٨

(٢٠٣) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٧٠ — ٧٢

(٢٠٤) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٠ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨

ابن حاتم[٢٠٥] ثم فى عهد الاغالبة الذين تولوا حكم افريقيــة منــذ عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م .

هذا فى الوقت الذى لم يبد فيــه بنو صالح ومن معهم من الصفرية أى نشاط ثورى ، اذ فضلوا التمتع باستقلالهم فى بلادهم النائية ، وذلك لم تصل اليهم يد الخلافة . ولمــا تولى الأدارســة حكم بلاد المغرب الأقصى فى عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م قنعوا منهم بالولاء الشــكلى الذى أشرنا اليه وتركوهم يحكمون بلادهم مستقلين ، مع الحفاظ على حسن الجوار وتبادل العلاقات والمنافع التجارية كما سبق القول .

ومعروف أن الخوارج فى بلاد المغرب كانوا وسيلة من وســائل نشر الاسلام[٢٠٦] ، ســواء بين البربر الذين كانوا على غير دين الاسلام، أم بين غيرهم من الســودان والزنوج الذين يســكنون البلاد التى تقع وراء الصحراء الكبرى فى بلاد النيجر والســنغال ، مما يدل على أن عقيدة القوم لم تكن بالصــفة التى وصفهم بها ابن حوقل أو البكرى . فليس من المعقول أن من ينشر الاســلام يكون خارجا عليــه أو مرتدا عنه وكافرا به .

ولكن اعتناق بنى صــالح وقــومهم من برغواطــة لأحد مذاهب الخوارج جعلهم فى مهب التشكيك والطعن ، سواء فى أنسابهم أم فى عقيدتهم ، كما جعلهم مكروهين وسط المحيط السنى الكبير الذى أحاط بهم حيث كانوا يستحلون سبى الذرارى والنساء وأخذ الأموال[٢٠٧] . وقد بلغت هذه الكراهية حدا جعــل الليث بن ســعد فى مصر يقول « ما من غزوة كنت أحب أن أشــهدها بعد غزوة بدر أحب الى من غزوة

(٢٠٥) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٠ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٨٢

(٢٠٦) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ١٤٧

(٢٠٧) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

القرن والأصنام »[٢٠٨] ، وهما الغزوتان اللتان اندحر فيهما صفرية بلاد المغرب اندحارا شديدا[٢٠٩] انسحب بعضهم اثره كما قلنا الى بلاد تامسنا حيث قام حكم بنى صالح ، وبعضهم الآخر الى سجلماسة فى أقصى الجنوب حيث قام حكم بنى مدرار .

وقد اشتدت كراهية الناس لهم بعد أن طعموا مذهبهم ببعض العقائد المستمدة من مذاهب اسلامية أخرى كالشيعة التى أخذوا منها قولهم بالرجعة ، وبالمهدى المنتظر الذى يخرج فى آخر الزمان لقتال الدجال ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا[٢١٠] ، مما جعل ابن حوقل الشيعى الهوى والبكرى المالكى السنى المذهب يشتدان فى نقدهم والطعن فى مذهبهم وفى أحوالهم .

ويبدو أن بنى صالح قد اضطروا لخلط مذهبهم بهذه العقائد استدرارا لعطف الفاطميين وابعادهم عنهم وعن بلادهم فى نفس الوقت، خاصة بعد أن كان نجم الفاطميين قد علا فى بلاد المغرب منذ أن قامت دولتهم فيه عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م واستطاعوا السيطرة فى أحيان كثيرة على بلاد المغرب الأقصى وغزوه عدة مرات لمنع سيطرة الأمويين عليه . وقد سقط أحد ملوك بنى صالح فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م قتيلا فى احدى هذه الغزوات بعد أن قاوم التدخل الفاطمى فى بلاده على يد الزيريين الصنهاجيين الذين كانوا دعاة الفاطميين ويدهم التى يبطشون بها فى هذه البلاد ، ولم ينفع بنو صالح ولم يشفع لهم ما كانوا قد أدخلوه من عقائد شيعية على مذهبهم الصفرى الذى اعتنقوه .

كان بنو صالح مصممين على حكم بلاد تامسنا حكما مستقلا عن أى قوة أخرى قريبة أو بعيدة ، وتصدوا فى سبيل ذلك للمغيرين على

---

(٢٠٨) الرقيق القيروانى : نفس المصدر ، ص ١٢٢ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٩

(٢٠٩) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩

(٢١٠) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥

بلادهم بكل قوة وحزم وعزم . وقد أشارت كتب التاريخ الى مقاومتهم واستبسالهم والى قوتهم وعنفهم فوصفوهم بأنهم كانوا « أحرار ذوى شوكة »[٢١١] .

ومن الواضح أن حبهم للحرية والاستقلال جعلهم يحرصون على تأكيد سيطرتهم على بلادهم والبعد بها عن كل نفوذ خارجى ، والاستعانة بالأمويين فى سبيل الحفاظ على استقلالهم بعيدا عن نفوذ الأدارسة والفاطميين ، وهما القوتان اللتان كان فى مكنتهما التدخل فى بلادهم .

كذلك فقد دفعهم حب الحرية والاستقلالية الى استعمال لغتهم الخاصة بهم وهى اللغة البربرية حتى فى أداء الشعائر الدينية كما أشار الى ذلك ابن حوقل[٢١٢] والبكرى[٢١٣] .

ويبدو أن ترجمة الشعائر الدينية وترجمة بعض السور وآيات القرآن الكريم الى لغتهم قد دخله شطط أو خطأ ، فظن البعض أن صالح بن طريف ألف قرآنا خاصا به باللغة البربرية يتمثل فى ثمانين سورة أسماء معظمها تقع على أسماء النبيين من لدن آدم ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس[٢١٤] . ومعروف أن القرآن الكريم ذاته يشتمل على عدد كبير من السور تتحدث عن الأنبياء وتحمل بعضها أسماء بعض الأنبياء ، مما أدى الى الخلط والتشكيك فى عقيدة القوم أو مذهبهم .

فالراجح أن هذه السور المترجمة الى البربرية وتحمل أسماء

---

(٢١١) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٦٦

(٢١٢) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٢١٣) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٩ — ١٤٠

(٢١٤) المصدر السابق ، ص ١٤٠

الأنبياء هي نفسها سور من القرآن الكريم ، خاصة وأنه لا يوجد أحد من المؤرخين قد تحدث في ايجاز أو تفصيل عن هذه السور الا البكرى الذى أشار الى كلمات مترجمة من أول سورة واحدة منها[٢١٥] دون أن يشير الى المصدر أو المترجم الذى أخذ عنه هذه الكلمات ، ولم نعرف بعد أن البكرى كان يحسن الترجمة من اللغات البربرية على تعددها الى اللغة العربية .

كما أن الكلام الذى أورده البكرى أيضا عن القرآن المنسوب الى صالح بن طريف أو الى حفيده يونس كلام مرسل غير مستند الى راو معروف أخذ عنه البكرى هذا الكلام ، ذلك أننا نراه يذكر راويه بالنسبة لملوك بنى صالح وحروبهم واتصالهم ببلاد الأندلس وعقيدتهم بصفة عامة ، وعندما يتصدى للحديث عن هذا القرآن المزعوم لا يذكر مصدره ولا من أخذ عنه ، مما يجعلنا لا نقبل روايته ، ويجعل من المستحيل في مثل هذه الظروف أن تكون فكرة دقيقة وكاملة عما نسب الى بنى صالح من عقيدة مزعومة[٢١٦] لا يمكن أن تصمد أمام هذه الدلائل العديدة التى سقناها حتى الآن .

ولذلك كله فاننا نستطيع القول فى اطمئنان بأن بنى صالح وقومهم من برغواطة كانوا مسلمين يدينون بمذهب الخوارج الصفرية ، وهو مذهب لا يمت بصلة الى المذاهب المحيطة بهم ، واتخذوا من هذا المذهب راية يلتفون حولها حفاظا على استقلالهم ونجاة من سيطرة القوى المحيطة بهم ، اذ أنهم وكما قلنا كانوا محاطين بقوى ثلاث ، هى دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، والفاطميون فى افريقية والمغرب الأوسط ، والأمويون فى الأندلس .

أما الأمويون فقد صانعوهم وربطوا معهم كما رأينا أواصر الصداقة

---

(٢١٥) المصدر السابق ونفس الصفحة .
(٢١٦) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٧ ص ٧٣

والمودة ، وأما الأدارسة السنة والفاطميون الشيعة فلم يكن هناك من سبيل لدفع خطرهم الا التمسك بمذهب يخالف ما يعتنقه هؤلاء من مذاهب ، ونجح بنو صالح فى ذلك النجاح كله ، اذ التف البربر حولهم فى بلاد تامسنا وما يحيط بها من مدن ، ودانوا لهم بالطاعة الكاملة ، وبرزوا معهم لقتال من حاول النيل من بلادهم أو حاول القضاء على دولتهم ، مما أدى الى ازدهار هذه الدولة ، والى دخولها فى مرحلة من مراحل القوة والاقتدار والتوسع .

(٤)

ازدهار دولة بنى صالح وتوسعها

تعتبر الفترة الأولى التى امتـــدت من عهـــد طريف بن مالك (١٢٥ — ١٣١ هـ / ٧٤٣ — ٧٤٨ م) الى عام ٢٢٨ هـ ٨٤٢ م حيث بدأ حكم يونس بن الياس بن صالح بن طريف فترة نشـأة وتأسيس وتمهيد ووضع للقواعد والأصول التى قامت عليها دولة بنى صـالح فى بلاد تامســنا (السوس الأدنى) بالمغرب الأقصى . كما أنها كانت فترة سلام مع جيرانهـا من ولاة بنى العبـاس وأمراء الأدارسـة ، خاصـة وأن العباسـيين فى تلك الفترة كانوا يعيشـــون عصرهم الذهبى ، وكان الأدارسة يعيشون فترة قوتهم وازدهارهم ، ولذلك لم نسمع عن صــدام وقع بين بنى صالح وبين جيرانهم .

وفيما يبدو لم تكن قدرة بنى صالح العسـكرية فى تلك الفترة بكافية لاقامة علاقات غير سلمية مع جيرانهم ، يفهم ذلك من قول صالح ابن طريف لابنه الياس حينما أراد النزوح الى المشرق ألا يظهر أمره الا اذا كان قويا وآمن على نفســه ودولته ومذهبه من هجوم القوى المحيطة به ، وعندما تتوفر له القــوة والمنعة يمكنه حينئذ قتــال وقتل من خالفه ، وأوصــاه فى نفس الوقت بموالاة أمير الأندلس[١] حتى يكون فى جانبه اذا ما تعرض لهجوم أو عدوان من جيرانه ، مما يدل على عدم توافر القوة الكافيــة للتحرش بجيرانهم أو فرض مذهبهم الصفرى بالقوة على هؤلاء الجيران ، خاصة وأن الصفرية كانوا قد هزموا هزيمة ســاحقة فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وهى هزيمة فرقتهم بددا وأوهنت منهم الى حد كبير ، فأخفى الصفرية من بنى صالح أمرهم واتبعوا التقية حتى يصبحوا على شىء من القوة فيظهرون مرة أخرى . ولذلك التزم الياس بنصيحة أبيه وسالم جيرانه ولم يظهر مذهبه الخوارجى « خوفا

---

(١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٥

وتقية »(٢) ، ومات دون أن يقع أى صــدام بينه وبين أحد من جيرانه ، وتولى بعده ابنه يونس بن الياس (٢٢٨ ـ ٢٧١ هـ / ٨٤٢ ـ ٨٨٤ م) وبتولى يونس بدأ عهد القوة والازدهار والتوسع .

والدلائل على التوسع والازدهار فى عصر يونس كثيرة . منها أنه أظهر مذهبــه الذى كان يخفيــه آباؤه خوفا وتقية ، اذ كان بنو صالح كما قلنــا يعيشــون وسط بحر هائل من أهل الســنة والجمــاعة . والدليل الثانى أنه أخذ يفرض هذا المذهب بالقوة على جيرانه الأقربين . وفى ســبيل ذلك كون حلفا كبيرا جمع عددا من قبائل مصمودة وخاصة برغواطة التى ينتمى اليها والتى كانت قبيلة كثيرة البطون والشــعوب ، وكونت العمود الفقرى لدولة بنى صالح ، وكانت لها القوة والوجاهة والزعامة على جميع قبائل مصمودة فى شتى أنحاء المغرب الأقصى قبــل الاســلام وفى صدره وفى قرونه الأولى(٣) .

وبالاضافة الى برغواطة ، فقد شــمل هذا الحلف عددا كبيرا من القبــائل الأخرى بعضها من زناتة وبعضها الآخر من صنهاجة وغيرهما من القبائل . ومن أهم هــذه القبائل التى انضوت تحت لوائهم واتبعتهم فى مذهبهم وكونت معهم دولتهم التى عاشت أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، قبائل جراوة ، وزواغــة ، والبرانس ، ومنجصــة الزناتيــة ، ومطغرة ، ومطماطة ، وبنو أبى ناصر ، وبنو أبى نوح ، وبنو بورغ ، وبنو دمر ، وبنو وزكيت أو وزكسينت ، وأغمر(٤) ، وبنو نسلت ، وبنو أو يقمران ، وزقاره(٥) .

أما القبائل الأخرى التى انضــوت تحت لوائهم ولم تتبع مذهبهم

---

(٢) المصدر الســابق ، ص ١٣٦
(٣) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧
(٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٨
(٥) الادريسى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٣٦

فهي كثيرة ، منها زناتة الجبل ، وبني يفرن الزناتيين ، وبني يجفش[٦] ، وبني يليت ، ونمالتة ، وبني واوسينت ، وبني قاغيت ، وبني النعمان ، وبني أفلوسة ، وبني كوتة ، وبني يسكر ، وأصادة ، وركانة ، وايزمين ، ومنادة ، وماسينة ، ورصاتة ، وترارته[٧] .

وعلي ذلك فقد كان بنو صالح في عهد يونس في قوة عظيمة وعدد كبير مكنهم من تجنيد جيش قوي قادر بلغ عدد فرسانه نحو اثني عشر ألف فارس[٨] ، استطاعوا به أن يفرضوا نفوذهم ومذهبهم علي عدد كبير من القبائل والمدن والقرى ، سواء في تامسنا ذاتها أم في المدن المجاورة لهم والمحيطة بهم . يفهم ذلك من قول البكرى أن يونس قام بمحاربة من خالفه وألحق بهم الهزيمة ودمر كثيرا من مدنهم وأحرق كثيرا من مدائن تامسنا وما والاها ، ويقال انه دمر وأحرق ٣٨٧ مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم اياه وعدم دخولهم في طاعته[٩] ، اذ كانوا سنة وهو يدعو الى مذهب الصفرية . ونظرا لمخالفتهم اياه وعدم اتباعهم لمذهبه فقد حاربهم وقتل منهم في موضع واحد يقال له (تاملوكاف) — وهو حجر ثابت عالي في وسط السوق — سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا ، كما قتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد ، والوغد عندهم هو المنفرد الوحيد الذي لا أخ له ولا ابن عم ، وذلك قليل في البربر ، وذكر البكرى أنهم « أحصوا الأقل ليستدل به على الأعظم والأكثر »[١٠] .

---

(٦) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤١ ، الادريسي : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٧) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤١

(٨) المصدر السابق ، ص ١٤١

(٩) المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

(١٠) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٦

وبذلك بسط يونس نفوذه على جميع بلاد تامسنا ، ويعتبر هو المؤسس الحقيقي لدولة بنى صالح فى هذه البلاد . وقد ساعده على ذلك ظروف الأدارسة الذين كانوا يسيرون فى طريق الضعف والتفكك ، كما ساعدته ظروف دولة بنى العباس التى انحسر نفوذها عن معظم أنحاء بلاد المغرب . فافريقية كانت تحت حكم الأغالبة الذين أقاموا فيها أسرة حاكمة تتوارث الحكم منذ عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وتاهرت ومعظم بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) قامت فيها أسرة أباضية حاكمة هى الأسرة الرستمية منذ عام ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م ، وكذلك سجلماسة قامت فيها دولة صفرية منذ عام ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م

ولذلك تمكن يونس من أن يفرض نفوذه على كل السوس الأدنى وأن يفرض مذهبه على من خالفه ، فازدهرت دولته واستطاع أن يحكم تامسنا مدة كبيرة بلغت أربعة وأربعين عاما ، حيث توفى وخرج الأمر من بنيه ، وانتقل الحكم الى بنى ابن عمه معاذ بن اليسع بن صالح ابن طريف ، حيث تولى منهم حكم تامسنا أبو عفير محمد بن معاذ ابن اليسع (٢٧١ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٤ — ٩١٢ م)[11] .

تولى أبو عفير محمد بن معاذ الحكم بعد أن كان كثير من بلاد تامسنا قد دان بمذهب الصفرية الذى فرضه يونس ، وسار أصحاب المذاهب الأخرى من أهل السنة تحت لوائه كما سبق القول ، مما أدى الى اتساع دولة بنى صالح ، ولم يتوان أبو عفير عن العمل على

---

(١١) المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٤

ويلاحظ أن اسم أبى عفير محمد بن معاذ ورد عند ابن حوقل (ص ٨٢) ابو العفير ، وورد عند البكرى (ص ١٣٦) أبو غفير يحمد ابن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ، وورد عند ابن عذارى (جـ ١ ص ٢٢٤) أبو عفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ، وورد عند ابن خلدون (جـ ٦ ص ٢٠٨) أبو غفير محمد بن اليسع بن صالح ابن طريف .

الحفاظ على هـذه الدولة الواسـعة وعلى تدعيم أركانها ومحاربة من يتصدى لها من قبائل البربر المجاورة .

يتبين ذلك من رواية البكرى الذى قال أن أبا عفير اتجه شـمالا لمقاتلة المدن والقبـائل الواقعة فى اقليم فاس ، ووصـل فى زحفه إلى وادى بهت الذى يتوسط ذلك الاقليم ، حيث قاتل البربر النازلين فى هـذا الوادى فى موقعة تعرف بموقعة بهت عجز الاحصاء عن عد من قتل فيها من البربر على يد أبى عفير كما يقول البكرى(١٢) وابن عذارى(١٣) .

ونظرا لكثرة عـدد القتلى الذين أزهقت أرواحهم على يد جيش أبى عفير ، ونظرا للدمار الذى لحق مدن وادى بهت على يديه ، فقـد سجل أحد الشعراء هذا الحدث فى قصيدة طويلة نعى فيها على بنى صالح ما أحدثوه بالبلاد والعباد من خراب وقتل ودمار . وقد اختار البكرى بعض أبيات من هذه القصيدة منها(١٤) :

قفى قبـل التفرق فأخبرينـا وقولى وأخبرى خبرا مبينـا

هموم برابر خسروا وضلوا وخابوا لا سـقوا ماء معينا

يقـولون النبى أبو غفـير فأخـزى الله أم الكاذبينـا

ألم تسـمع ولم تر يوم بهت على آثار خيـلهم رنينـا

رنين الباكيات فبين ثكلى(١٥) وعاوية ومسـقطة جنينـا

ولم تكن موقعة بهت هى الموقعة الوحيـدة التى خاض أبو عفير

(١٢) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٦ .

(١٣) البيـان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٤ ، انظر الخريطة ص ١١ لمعرفة موقع وادى بهت .

(١٤) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٨

(١٥) عند ابن عذارى (جـ ١ ص ٢٢٦) : رنين الباكيات بهم ثكالى .

غمارها خارج حـدود بلاده ، بل انه خاض معركة أخـرى أطلق عليها البكرى اسم وقيعة تيمغسن[١٦] ، وسماها ابن عذارى وقعة تامعزا[١٧] ، وذلك نسبة الى مدينة من مدن البربر ، سـواء كان اسـمها تيمغسن أم تامعزا ، وهى مدينة قال عنها البكرى « انها مدينة عظيمة أقام القتل فى أهلهـا ثمانيـة أيام من الخميس الى الخميس حتى شرقت دورهم ورحابهم وسـككهم بدمائهم منها »[١٨] ، وقال عنها ابن عـذارى أن أبا عفير « أقام القتل فيها ثلاثة أيام »[١٩] .

وسواء كان عدد الأيام التى باشر فيها أبو عفير قتل أهل هـذه المدينة سـبعة أم ثلاثة ، فان ذلك يدل على مدى القـوة التى توافرت له من ناحية ، ويدل على مدى العنف والشراسة التى تميز بها أولئك الخوارج من ناحية أخرى ، وهو أمر طبيعى عند قوم يعتبرون مخالفيهم وأبناءهم كفارا يحل قتالهم وقتلهم وسبى ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم اذا لم يدخلوا فى مذهبهم كما هو معروف وكما سبق القول[٢٠] .

مات أبو عفير بعد أن ملك سـبعا وعشرين سنة ، وتولى حكم بلاد تامسـنا بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله بن أبى عفير ، وذلك عند تمام المـائة الثالثة ، وحكم مـدة طويلة بلغت اثنين وأربعين عـاما (٣٠٠ — ٣٤١ هـ / ٩١٢ — ٩٥٢ م)[٢١] ، وكان معـاصرا بذلك لعبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالأندلس .

---

(١٦) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٦

(١٧) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٤

(١٨) المغرب فى ذكر بلا افريقية والمغرب ، ص ١٣٦

(١٩) البيان المغرب ، جـ ١ ص ٢٢٤

(٢٠) انظر : ص ٧٠

(٢١) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن عـذارى : نفس المصدر ، جـ ١/ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

ويخبرنا ابن خلدون أن أبا الأنصار كان كثير الدعوة مهابا عند ملوك عصره[٢٢] ، ويخبرنا البكرى وابن عذارى بأنه كان يجمع جنده وحشره فى كل عام ويظهر أنه سيقوم بغزو من حوله ، فتخشاه القبائل وترسل هداياها اليه وتطلب مسالمته ، وعندما تصله تلك الهدايا واللطائف كان يفرق أصحابه ويعدل عن غزو جيرانه . وظل أبو الأنصار يتبع هذه السياسة طوال سنى حكمه المديدة ، فعاش فى هدوء ودعة[٢٣] .

وليس فى ذلك غرابة بعد أن مهد له الحكام السابقون من بنى صالح البلاد وأرسوا له قواعد الحكم وأخضعوا له قبائل تامسنا وكذلك القبائل المحيطة بهم وخاصة من الشمال حتى وادى بهت الذى يتوسط اقليم فاس .

ويبدو أن الحروب التى خاضها حكام تامسنا وخاصة يونس وأبو عفير ضد القبائل والمدن الأخرى التى تقع بين نهر أبى الرقراق الذى يفصل اقليم تامسنا عن اقليم فاس والذى يعتبر الحد الشمالى لبلاد تامسنا ، وبين وادى بهت الذى أشرنا اليه والذى يتوسط اقليم فاس ، كانت حروبا دفاعية فى المقام الأول ، اذ أن القبائل المحيطة باقليم تامسنا من هذه الناحية كانت تظهر عداءها وكراهيتها لحكام تامسنا بسبب الخلاف فى المذهب وبسبب سياسة بنى صالح فى الاحتفاظ باستقلالهم حتى صاروا كالشوكة فى جنب الدولة الادريسية وفى جنب من قام بعدها من دول فى بلاد المغرب الأقصى .

ويفهم هذا العداء من قول ابن حوقل أن كثيرا من الناس كانوا فى رباط عند وادى سلا الذى اعتبره نهاية سكنى المسلمين ، فكان هؤلاء

---

(٢٢) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٨

(٢٣) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

المرابطون فى نظره من المسلمين وعداهم من برغواطة كانوا من الكفرة الذين يجب التصدى لقتالهم ، ومن ثم فقد بالغ فى ذكره لعدد المرابطين الذين تصدوا لهم عند وادى سلا فقال انهم كانوا « مائة ألف انسان يزيدون فى وقت وينقصون لوقت »[٢٤] .

وطبيعى أن هذا الموقف العدائى من السكان المحيطين لبلاد تامسنا وخاصة من الشمال عند وادى سلا قد دفع بنى صالح الى قتالهم والتنكيل بهم حتى خضعوا لهم ودانوا لهم بالطاعة ، مما أدى الى اتساع دولتهم حتى وادى بهت فى الشمال وحتى آسفى فى اقليم دكالة فى الجنوب .

وكما قلنا فقد حكم أبو الأنصار مدة طويلة بلغت اثنين وأربعين عاما ، ولما مات دفن فى مكان يسمى أمسلاخت وتولى بعده ابنه أبو منصور عيسى بن عبد الله بن أبى عفير (٣٤١ — ٣٦٨هـ/٩٥٢ — ٩٧٨م) الذى كان يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، فسار على سياسة أبيه ودان بمذهبه واشتدت شوكته وعظم سلطانه[٢٥] ، ودانت له قبائل المغرب[٢٦] ، واتخذ جيشا قويا ناهزت عساكره الثلاثة آلاف من قبيلة برغواطة وحدها ، وعشرة آلاف من غيرهم من القبائل الأخرى مثل جراوة وزواغة والبرانس ومجكصة ومطغرة ودمر ومطماطة ويشو وأوزكيت[٢٧] ، واتصل بالحكم المستنصر الخليفة الأموى بالأندلس فى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، وكان أبوه قد أوصاه بموالاة

---

(٢٤) صورة الأرض ، ص ٨٢

(٢٥) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٥

(٢٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٨

(٢٧) المصدر السابق ، نفس الجزء ونفس الصفحة .

صاحب الأندلس حسب العادة والسياسة الثابتة التى اتبعها ملوك بنى صالح فى هذا المضمار منذ أن قامت دولتهم[٢٨] .

ورغم هذه العلاقة الوطيدة التى ربطت بين بنى صالح فى تامسنا وبنى أمية فى الأندلس فان الصراع الذى نشب بين الفاطميين وبين الأمويين حول السيطرة على بلاد المغرب الأقصى ترك ظلاله على هذه العلاقة فى عهد سيطرة المنصور بن أبى عامر على مقاليد الأمور فى بلاد الأندلس وحجره على الخليفة الأموى هشام المؤيد . فقد أراد المنصور بن أبى عامر أن يدعم نفوذه فى بلاد المغرب الأقصى كما دعم نفوذه فى بلاد الأندلس مستغلا العداء الذى كان قائما بين زناتة التى كانت تدين بالولاء للأمويين ، وصنهاجة التى كانت تدين بالطاعة للفاطميين[٢٩] .

وتنفيذا لهذه السياسة أرسل المنصور بن أبى عامر القائد جعفر ابن على الزناتى من الأندلس الى المغرب الأقصى فى عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦م وقلده حكم هذه البلاد ، فنزل جعفر مدينة البصرة ، وحدث خلاف بينه وبين أخيه يحيى الذى استطاع أن يستميل الجند وأمراء زناتة ، ولم يرد جعفر أن ينشب صراع بينه وبين أخيه ، فاتجه جنوبا بمن معه من جند الأندلس والمغرب ناحية بلاد تامسنا . ولما وصل الى هذه البلاد لقيه جيش بنى صالح الذى تمكن من هزيمة جعفر هزيمة ساحقة لدرجة أن هذا القائد لم يكن أمامه الا أن ينجو بنفسه مع فلول جنده المهزومين ، وعاد أدراجه ولحق بأخيه يحيى فى البصرة حيث استدعاه المنصور بن أبى عامر الى الأندلس ، فرحل اليها دون أن يتمكن

---

(٢٨) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٣٤ ، ١٣٧ ، ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٥

(٢٩) المراكشي : نفس المصدر ، ص ١٤ ، ١٦ ، خالد الصوفانى : تاريخ العرب فى اسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ، دار الكاتب العربى ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٦٠

أو أخوه يحيى الذى بقى فى حكم المغرب من الحاق أى هزيمة
صالح[٣٠] .

وازاء بقاء يحيى بن على الزناتى فى حكم الجزء الشمالى من بلاد
ب الأقصى ، نهض الفاطميون للقضاء على هذا النفوذ الاموى وعلى
زناتة الحليفة لبنى أمية ، وذلك حتى تخلص لهم هذه البلاد دون
أمية والمنصور بن أبى عامر ، وقامت صنهاجة التى كانت تدين لهم
لاء والطاعة بهذا الدور خير قيام ، فتمكن زعيمها بلقين بن زيرى
مناد الصنهاجى من غزو المغرب فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، انتقاما
أبيه الذى تم على أيدى زناته ، وتحقيقا لحلم الفاطميين فى السيطرة
بلاد المغرب الأقصى واقصاء لنفوذ المنصور بن أبى عامر منها[٣١] .

تمكن بلقين من هزيمة زناتة ففرت أمامه وانسحبت الى مدينة سبتة
صنت بها وطلبت مساعدة المنصور بن أبى عامر ، فأرسل جعفرا على
جيش جرار ، ولما رأى بلقين كثرة عدد جند جعفر ، قرر عدم
ول معه فى قتال واتجه جنوبا الى البصرة فهدم قلعتها ، ثم اتجه الى
اطة ببلاد تامسنا والتى كانت فى ولاء دائم مع حكام الأندلس ،
زعيمها أبو منصور عيسى بن أبى الأنصار فى قومه من برغواطة
هم ، ولكن أبا منصور لم يتمكن من صد الصنهاجيين وهزم فى
كة هزيمة منكرة ، وقتل فيها كما قتل عدد كبير من جيشه ، واستطاع
ألن يسبى عددا كبيرا من نسائهم وذراريهم ، وبعث بهذا السبى
افريقية[٣٢] ، فوصل الى مدينة المنصورية فى عام ٣٧١ هـ / ٩٨١ م
أهل افريقية من السبى ما لم يره أحد منهم لكثرته ، وطيف بهم

(٣٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣١) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٣٧ ، ابن خلدون :
المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٩

(٣٢) المصدر السابق ونفس الصفحة ، السلاوى : نفس المصدر ،
١ ص ١٠٤

في المنصورية والقيروان »[٣٣] ، واستولى بلقين على معظم أنحاء بلاد المغرب وكاد يمحو دعوة بني أمية من هذه الأنحاء ، وكانت تصله السجلات من مصر في فاس ، وظل مقيما في هذه البلاد « وأهل سبتة منه خائفون وزناتة مشردون وذلك من سنة ٣٦٨ هـ الى عام ٣٧٣ هـ[٣٤] .

وكانت هذه الضربة التي كالها الزيريون الصنهاجيون الى بني صالح بداية النهاية لدولتهم التي دخلت مرحلة السقوط التدريجي منذ ذلك الحين .

---

(٣٣) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٣٨

(٣٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٣٧ ، خالد الصوفي : نفس المرجع ، ص ١٦٢

(٥)

سقوط دولة بنى صالح فى تامسنا

بدأت مرحلة السقوط لدولة بنى صالح فى تامسنا اثر الهزيمة الماحقة التى تعرضوا لها على يد الصنهاجيين فى عام ٣٦٨ هـ/٩٧٨م حيث قتل مليكهم أبو منصور عيسى الذى ذكره ابن عذارى على أنه صالح بن عيسى بن أبى الأنصار [٢] . وربما كان صالح هذا هو القائد الفعلى للمعركة ، بينما كان أبوه عيسى هو القائد الأعلى ومليك البلاد ، وكانت العادة فى تلك العصور هى أن يقدم الأب ابنه لقيادة الجند كسبا للخبرة وتمهيدا لتولى الحكم بعد وفاته .

وعلى أى حال فان عيسى وابنه قتلا فى هذه المعركة التى أصابت دولة بنى صالح فى الصميم لدرجة أن ابن خلدون يقول أنه لم يقف على من ملك أمرهم بعد مقتل أبى منصور عيسى[٣] . ومع ذلك فان الدولة ظلت قائمة ، واستمرت برغواطة وبنو صالح فى حكم تامسنا رغم أن المصادر لم تشر الى أسماء الحكام الا بعد فترة طويلة من وقوع هزيمة عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م .

ويرجع بقاء بنى صالح فى حكم هذه البلاد الى أن المنصور ابن أبى عامر تمكن من القضاء على النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب الأقصى ، كما تمكن أيضا فى عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م من القضاء على دولة الأدارسة التى كانت تعطى ولاءها فى عصر ضعفها للفاطميين مرة وللأمويين مرة أخرى[٣] فخلت الساحة فى بلاد المغرب الأقصى لأصدقاء الأمويين والذين كانوا يتمثلون فى زناتة وبرغواطة .

---

(١) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٠٩

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٣٧

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢١٩

ولما حاول عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر أن يعرض نفوذه كأبيه على هذه البلاد اصطدم بقوة برغواطة وحبها للاستقلال والحرية ، فقاتلها وأثخن فيها قتلا وسبيا[٤] . ولكن الأمور فى بلاد تامسنا عادت الى طبيعتها بعد أن انتهى عهد العامريين فى بلاد الأندلس فى عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م[٥] ، وبعد أن انتهى عهد الخلافة الأموية أيضا فى عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م[٦] ، مما ترك فراغا سياسيا كبيرا فى بلاد المغرب الأقصى .

وقد أعطى هذا الفراغ الفرصة لقبائل زناتة من بسط نفوذها على كثير من أنحاء هذه البلاد ، ومن ثم جاء صدامها مع بنى صالح وبرغواطة فى تامسنا ، ويمثل هذا الصدام الضربة الثانية التى أثرت بشكل كبير فى تاريخ بنى صالح فى هذه البلاد .

ذلك أن بنى يفرن الزناتيين كانوا قد استقلوا بناحية سلا منتهزين فرصة هذه الظروف السياسية التى ألمت ببلاد المغرب الأقصى والأندلس ، واقتطعوا هذه الناحية من عمل زيرى بن عطية المغراوى الذى كان يبسط سلطانه على الجزء الشمالى من بلاد المغرب الأقصى ، وذلك فى بداية القرن الخامس للهجرة . وكانت سيطرة بنى يفرن الزناتيين على سلا واقترابهم بذلك من مملكة بنى صالح اقترابا مباشرا من عوامل الصدام الذى حدث بين الفريقين[٧] . كما أن اختلاف المذهب بينهم كان سببا آخر فى حدوث هذا الصدام .

ذلك أن جمهور بنى يفرن ومغراوة وزناتة بصفة عامة كانوا من أهل

---

(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٠٩ ، السلاوى : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٤

(٥) المراكشى : نفس المصدر ، ص ٢٢ ، المقرى : نفس المصدر ، ص ١٩٨ ، ١٩٩

(٦) المراكشى : نفس المصدر ، ص ٣٢ — ٣٣ ، المقرى : ج ١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٧) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٩

السنة والجماعة[٨] ، بينما كان بنو صالح وبرغواطة على مذهب الصفرية من الخوارج كما عرفنا . ومن ثم اشتعل الصراع بينهما في عام ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م ، وتمكن زعيم بني يفرن تميم بن زيري بن يعلى أن يدحر برغواطة وأن يغلبهم على بلادهم وأن يستوطن ديارهم وينفي من بقي منهم ويقضي على دولتهم ، ويولي من يحكمها من قبله بعد أن أثخن فيهم قتلا وسبيا[٩] .

ويبدو أن حكم تميم اليفرني الزناتي لبلاد تامسنا لم يستمر طويلا رغم سيرته الحميدة وسلوكه الطيب وعدالته التي نوه بها البكري[١٠] ، اذ أنه توفي عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م ، كما يبدو أن قضاءه على بني صالح وبرغواطة لم يكن قضاء تاما وكاملا بحيث لا تقوم لهم قائمة ، ذلك ان ابن خلدون يقول أن البرغواطيين ، رجعوا الى بلادهم وتولوا حكمها من جديد ، وظلوا على هذا الحال حتى ظهرت دولة جديدة تمكنت من السيطرة على الصحراء وبلاد المغرب الأقصى كلها ، وهي دولة المرابطين التي ظهرت على مسرح الأحداث منذ عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م[١١] .

كان قوام هذه الدولة الفتية قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة من صنهاجة ، وكانت هذه القبائل قد انضوت تحت لواء فقيه مالكي يدعى عبد الله بن ياسين الجزولي وزحفوا تحت قيادته وقيادة زعيم لمتونة أبي بكر بن عمر الى بلاد تامسنا بعد أن كانوا قد افتتحوا الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة وسجلماسة وأغمات ونول الصحراء ، وذلك في محاولة

---

(٨) ابن حزم نفس المصدر ص ٤٩٨

(٩) البكري : نفس المصدر ص ١٤١ ، ابن خلدون : نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٩ ، السلاوي : نفس المصدر ج ١ ص ١٠٤

(١٠) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤١.

(١١) المصدر السابق ص ١٦٤ ، ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩

منهم للقضاء على برغواطة وعلى سلطانها في تامسنا(١٢) وعلى دياناتها حيث قيل لعبد الله بن ياسين أن برغواطة مجوس وأهل كفر وضلالة ، فقدم جهادهم على جهاد غيرهم ، وسار اليهم وأمير برغواطة يومئذ أبو حفص عبد الله من ذرية ملك تامسنا أبي منصور عيسى(١٣) الذى قتله الصنهاجيون فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م كما سبق القول .

ويبدو أن مقاومة برغواطة للمرابطين كانت شديدة ، ولم تكن قواتها ضعيفة بالقدر الذى تخيله الزعيم العسكرى للمرابطين أبو بكر ابن عمر اللمتونى الذى دخل معها فى وقائع عديدة « وملاحم عظام مات فيها من الفريقين خلق كثير » ، واستشهد فى احداها صاحب الدعوة المرابطية عبد الله بن ياسين فى جمادى الأولى من عام ٤٥١ هـ / يونية ١٠٥٩ م فى موضع يسمى كريفلت ، مما جعل المرابطين يصممون على الاستمرار فى محاربة برغواطة والنيل منها والقضاء عليها قضاء تاما (١٤) .

حدث البيعة لأبى بكر بن عمر اللمتونى الذى استأنف الزحف على برغواطة وأثخن فيهم قتلا وسبيا حتى تفرقوا فى الفيافى والقفار واستأصل شأفتهم ، ورجع الباقون منهم عن عقيدتهم أو عن مذهبهم الذى كانوا عليه منذ قيام دولتهم ، واستطاع أبو بكر بن عمر أن يمحو أثر دعوتهم أو مذهبهم من المغرب ، ولما فرغ من أمرهم وقسم غنائمهم عاد الى مدينة أغمات التى اتخذها مقرا لرباط جيشه(١٥) . ولم يلبث أبو بكر

---

(١٢) البكرى : نفس المصدر ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٠٩

(١٣) السلاوى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٠٤

(١٤) البكرى : نفس المصدر ص ١٨٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٠٩

(١٥) ابن سعيد المغربى : نفس المصدر ، ص ٥٩ ، السلاوى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٠٥ .

أن رحل الى الصحراء في عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م لحدوث نزاع بين قبائلها وترك أمر المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن شاهين[١٦] .

ومع أن السلاوى جعل نهاية دولة بنى صالح البرغواطيين على يد أبى بكر بن عمر اللمتونى زعيم دولة المرابطين في عام ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ، الا أن الحسن الوزان يعطينا رواية أخرى تجعل هذه النهاية على يد يوسف بن تاشفين . وكان يوسف قد مكن لنفسه في بلاد المغرب الأقصى بعد رحيل ابن عمه أبى بكر بن عمر إلى الصحراء ، وافتتح كثيرا من هذه البلاد ، ودعم نفوذه ببناء مدينة مراكش في عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م واتخذها عاصمة له ، فعظم ملكه واشتدت شوكته[١٧] .

والحقيقة أن السلاوى أشار الى حروب يوسف في بلاد المغرب الأقصى بصفة عامة[١٨] ولم يشر الى حروبه مع برغواطة بوجه خاص، وانفرد الحسن الوزان الذى عاش قبل السلاوى بعدة قرون برواية مؤداها أن نهاية دولة بنى صالح البرغواطيين في تامسنا كانت على يد يوسف بن تاشفين الذى كان قد انفرد بحكم بلاد المغرب الأقصى دون ابن عمه أبى بكر بن عمر[١٩] .

والراجح أن برغواطة انتهزت فرصة عودة أبى بكر بن عمر الى الصحراء في عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م فجمعت شتاتها واستأنفت نشاطها السياسى وعاد حكمها الى بلاد تامسنا وأصبحت شوكة في جنب يوسف ابن تاشفين الذى أراد أن تكون بلاد المغرب الأقصى كلها خالصة له

---

(١٦) السلاوى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٠٦

(١٧) القلقشندى : نفس المصدر ص ١٧١

(١٨) الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، جـ ١ ص ١٠٦

(١٩) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ ، ١٥ ، الحسن الوزان : وصف افريقيا جـ ١ ص ١٩٥ ، السلاوى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٠٦

وحـده حتى دون ابن عمه الزعيم المبايع من المرابطين كلهم . ولذلك صمم يوسف على القضاء عليها ومحو أثرها من الوجود .

بعد أن اطمأن يوسف على توطيد مركزه فى الجزء الجنوبى من المغرب الأقصى وبعد أن بنى مدينة مراكش ، اتجه الى تامسنا للاستيلاء عليها حتى يكتمل نفوذه وسلطانه على كل هذه البلاد ، وفى البداية فضـل استخدام أسلوب اللين والدعوة السلمية ، فأرسل عـددا من العلمـاء السنيين الى تامسنا يعظون أهلها ويحاولون تحويلهم عن مذهبهم الذى كانوا يعتنقونه والذى اعتبره الحسن الوزان زندقة ومروقا عن الاسلام(٢٠) جريا وراء ابن حوقل والبكرى .

وكانت محاولة يوسف هدفها أن يعود أهل تامسنا وبرغواطة على وجه الخصوص الى صفوف أهل السنة دون قتال أو حرب(٢١) . ومعروف أن دولة المرابطين قامت على أساس دعوة دينية ترمى الى نشر الاسلام ، وتنقيته مما شابه على أيدى البربر ، ورد المظالم وقطع جميـع المغارم ، والقضاء على أى مذهب يخالف المذهب المـالكى السنى . الذى كان المرابطون يتمسكون به أشد تمسك(٢٢) .

وقد وصل هؤلاء العلماء الذين أرسلهم ابن تاشفين الى تامسنا ، واجتمع أهل هذه البلاد فى مدينة آنفا التى تطل على المحيط الأطلسى والتى تعرف اليوم بالدار البيضاء(٢٣) بزعيمهم أو « صاحب أمرهم لعهد انقراض دولتهم أبو حفص عبد الله من أعقاب سابع ملوكهم أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار عبد الله بن أبى عفير محمد بن معاذ بن اليسـع

---

(٢٠) الحسن الوزان : نفس المصدر جـ ١ ص ١٩٥

(٢١) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٢٢) البكرى : نفس المصدر ص ١٦٤

(٢٣) الحسن الوزان : نفس المصدر جـ ١ ص ١٩٥

ابن صالح بن طريف[٢٤] وقرروا اعدام هؤلاء العلماء الوافدين عليهم من قبل يوسف بن تاشفين ، ونفذوا قراراتهم وعبأوا جيشا قوامه خمسون ألف مقاتل ، على أساس أن يطردوا قبيلة لمتونة التى تتزعم المرابطين من مراكش ومن المنطقة كلها[٢٥] .

وعندما علم يوسف بن تاشفين اللمتونى بذلك غضب غضبا شديدا وجمع جيشا عظيما ولم ينتظر حتى يهاجمه البرغواطيون ، وبادر بالزحف اليهم ، فوصل الى تامسنا خلال ثلاثة أيام بعد أن عبر نهر أم الربيع . وعندما رأى جند تامسنا هذا الجيش الزاحف لقتالهم يتقد حمية وحماسة وتصميما على النيل منهم ، انتابهم الخوف وأخذهم الفزع وعدلوا عن قتاله والتصدى له ، وفروا هاربين عبر نهر أبى الرقراق فى اتجاه فاس ، تاركين أهليهم وبلادهم[٢٦] .

ولذلك دخل يوسف بن تاشفين تامسنا دون قتال ، وأباح لجنده البلاد وسكانها فأضرموا فيها النيران وأصبحت طعمة للنار والدم والنهب والقتل الذى لم ينج منه صغير أو كبير حتى الأطفال الرضع . وظل يوسف مقيما فى بلاد تامسنا ثمانية شهور عمل أثناءها على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض أطلال لمدنها العامرة[٢٧] .

وقد بلغت الكارثة التى حلت ببلاد تامسنا مداها نتيجة لموقف ملك فاس الذى لم يكن قد خضع بعد للمرابطين والذى كان قد بلغته نية أهل تامسنا فى عبور نهر أبى الرقراق واتجاههم الى بلاده ، فعقد هدنة مع قبائل زناتة التى كان معها فى حرب ، واتجه نحو النهر المذكور على

(٢٤) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٩

(٢٥) الحسن الوزان : نفس المصدر ج ١ ص ١٩٥

(٢٦) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

(٢٧) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

رأس جيش عرمرم ، وهناك واجه ملك تامسنا البائس الذى كانت قواته منهوكة القوى تماما جوعا وذعرا وتقهقرا . ولما حاول هذا الملك عبور النهر كي تنج قواته من المصير المظلم الذى يطاردها على يد المرابطين ، تصدت له قوات فاس ومنعته من العبور ، حينئذ أصاب اليأس القاتل ملك تامسنا وجنده وتحققوا من الهزيمة والفشل ، واضطروا الى اللجوء الى الغابات المجاورة والى الصخور الوعرة التى يصعب اجتيازها[٢٨] .

ولم يلبث جيش يوسف بن تاشفين أن وصل الى مواقعهم وأخذ فى مطاردتهم وأحاط بهم ، فأبيد جيش تامسنا ابادة كاملة ، فمنهم من غرق في النهر ، ومنهم من تردى من أعالى الصخور التى كانوا قد لجأوا اليها فدقت أعناقهم ، ومن استطاع النجاة من الغرق تلقفه المرابطون فجزوا رأسه بالسيف[٢٩] ، وقتلوا مليكهم أبا حفص عبد الله وهو آخر ملوكهم من بنى صالح بن طريف البرغواطى[٣٠] . وأخذ عدد سكان تامسنا يتناقص ، وقدر عدد الهالكين منهم رجالا ونساء وأطفالا بعدد كبير قدره الحسن الوزان بمليون نسمة ، ولما فرغ يوسف بن تاشفين من القضاء على جيش تامسنا عاد أدراجه الى مدينة مراكش كى يعيد تنظيم جيشه للزحف لمهاجمة ملك فاس بعد أن ترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم[٣١] .

وهكذا تم القضاء تماما على دولة بنى صالح وعلى نفوذ برغواطة فى تامسنا بسبب هذه الهجمة المرابطية العنيفة[٣٢] التى دفعت قوات تامسنا الى الفرار حيث حوصرت من الشمال بجيش ملك فاس ومن الجنوب

---

(٢٨) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٣٠) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٠٩

(٣١) وصف افريقيا جـ ١ ص ١٩٦

(٣٢) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٠٩

بجيش المرابطين وأبيدت إبادة كاملة كما سبق القول ، كما قضى على مذهبهم الصفرى الذى كانوا يدينون به ، بدليل ما ذكره البكرى فى عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م من أن « جميع بلاد برغواطة اليوم على ملة الاسلام »(٣٣) . ومعنى ذلك أن القضاء على الدولة والمذهب تم فى الفترة ما بين بناء مدينة مراكش فى عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وبين ذلك التاريخ الذى أشار اليه البكرى ، والراجح أن هذا العمل تم بعد بناء هذه المدينة بعام على الأكثر أى فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م حيث كان يوسف يتوق للتخلص من كل القوى المعارضة والممالك التى كانت تعيش على أرض المغرب الأقصى ومنها بالطبع مملكة بنى صالح فى تامسنا .

واذا كان ابن تاشفين قد نجح فى القضاء على دولة بنى صالح وعلى جيشهم وعلى آخر ملوكهم ، فانه لم ينجح فى القضاء على القبائل التى كانت تعيش على أرض هذه الدولة وعلى رأسها برغواطة رغم الدمار والخراب والقتل الذى ألحقه ابن تاشفين بتامسنا وأهلها . اذ أن سياق الأحداث التى تلت عصر ابن تاشفين يدل على أن برغواطة ومن يدور فى فلكها من قبائل استعادت قوتها مرة أخرى وصارت خطرا يخشى بأسه من جديد .

والدليل على ذلك أن أهل تامسنا تصدوا للموحدين الذين قضوا على دولة المرابطين فى عام ٥٤١ هـ / ١١٥٦ م وأرادوا استكمال سيطرتهم على بلاد المغرب الأقصى فهاجموا برغواطة وتامسنا ثلاث مرات، أولاهما فى عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م قبل أن يستولوا على مدينة مراكش عاصمة دولة المرابطين ويقضوا القضاء المبرم على هذه الدولة . وكان عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين قد وجه قواته للاستيلاء على أنحاء المغرب الأقصى ، ومر على سلا وافتتحها واتجه الى مدينة مراكش ، وسرح

---

(٣٣) المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ص ١٤١

الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأثخن فيهم وعاد للالتحاق بعبد المؤمن حين زحفه على مدينة مراكش قبل أن يتمكن من القضاء على برغواطة(٣٤) .

وبعد أن سقطت مدينة مراكش في يد عبد المؤمن بن على في شوال من عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وتم قتل آخر ملوك المرابطين وزالت دولتهم واستولى الموحدون على جميع بلاد المغرب الأقصى ، خرج عليهم بناحية السوس ثائر من سوقة سلا يعرف باسم محمد بن عبد الله بن هود ، وتلقب بالهادى وظهر في رباط مدينة ماسة الساحلية باقليم السوس الأقصى ، ودعا الناس الى نفسه فاتبعه كثير من القبائل منها برغواطة وشتى قبائل تامسنا ، واتبعه أيضا أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وهوارة وجميع العرب المقيمون بهذه النواحي . فسرح اليهم عبد المؤمن ابن على جيشا كان نصيبه الهزيمة ، فأرسل جيشا آخر تمكن من هزيمة هذا الثائر وقتله في ذي الحجة من عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م(٣٥) .

ولكن هذه الهزيمة لم تقض على برغواطة وقبائل تامسنا ولا على القبائل الأخرى التي كانت قد دانت بدعوة ابن هود ورأت فيها الخلاص من سيطرة الموحدين . والدليل على ذلك أن أبا حفص قائد جيش الموحدين بعد أن قضى على ابن هود في ماسة عاد الى مدينة مراكش واستراح فيها أياما ثم خرج غازيا للقائمين بدعوة الثائر الماسى بجبال درن ، فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأخذ طاعتهم ، وعاد الى مدينة مراكش ثم خرج منها بعد ذلك الى هسكورة وأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم ؛ ثم نهض الى سجلماسة فاستولى عليها ورجع الى مدينة مراكش ، ثم خرج منها للمرة الثالثة الى برغواطة(٣٦) .

ورغم أن الموحدين غزوا برغواطة مرتين من قبل ، الا أن هذه

---

(٣٤) ابن خلدون : نفس جـ ٦ ص ٢٣٢

(٣٥) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٣٦) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٣

القبيلة وقبائل تامسنا الأخرى لم تلن قناتها وظلت صامدة أمامهم وقامت بمحاولة للحفاظ على كيانها ومصيرها ، وتصدت هذه المرة للموحدين بكل قوتها ، وتمكنت من هزيمتهم رغم قوتهم وسيطرتهم على أنحاء المغرب الأقصى (٣٧) .

ونتج عن هذه الهزيمة غير المتوقعة أن اضطرمت نيران الثورة من جديد ضد الموحدين في بلاد المغرب الأقصى ، فتشجع أهل سبتة وطردوا عامل الموحدين وقتلوا من بها منهم ، وأرسلوا القاضى عياض الى يحيى بن غانية المسوفى الوالى بالأندلس لمساعدتهم وارسال وال من قبله اليهم ، فبعث اليهم يحيى بن أبى بكر الصحراوى الذى كان واليا على فاس قبل استيلاء الموحدين عليها(٣٨) .

وبمجرد أن وصل هذا الوالى الى سبتة اتصل بالقبائل الخارجة على طاعة الموحدين مثل برغواطة ودكالة الذين كانوا قد هزموا الموحدين كما سبق القول . وزحف هذا الوالى من سبتة حتى وصل الى برغواطة الثائرة ليستعين بها فى قتال الموحدين ، ولكن عبد المؤمن بن على جيش اهم الجيوش وتمكن من هزيمتهم واستئصال شأفتهم فى عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، فأعطوه طاعتهم وتبرأوا من يحيى الصحراوى ، فعفا عنهم واستقام أمر المغرب الأقصى بكافة نواحيه له ولمن خلفه من الموحدين من بعده(٣٩) .

وهكذا قامت دولة بنى صالح بن طريف فى تامسنا بالمغرب الأقصى فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وكانت برغواطة هى العمود الفقرى لهذه الدولة التى استمرت حوالى قرنين ونصف قرن من الزمان دولة قوية مهابة خطب

---

(٣٧) المصدر السابق ، ونفس الجزء والصفحة .

(٣٨) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة

(٣٩) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة

زدها الكثيرون من حكام الدول المجاورة ، وعقد معها الأمويون بالأندلس أواصر الصداقة والمودة ، ولم ينل من هذه الدولة الا تلك الضربات العنيفة التى تعرضت لها على يد جيوش صنهاجة وجيوش العامرين وجيوش تميم بن يفرن الزناتى . وقد مهدت هذه الضربات الطريق أمام جيوش المرابطين القوية كى تقض على دولة بنى صالح وعلى مذهبهم الذى كانوا قد تمسكوا به فى محاولة منهم للاحتفاظ باستقلالهم المذهبى والسياسى .

واذا كانت دولة بنى صالح البرغواطية قد قضى عليها على يد أبى بكر ابن عمر اللمتونى فى عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م أو على يد ابن عمه يوسف ابن تاشفين فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، فان برغواطة كقبيلة لم يقض عليها ، وبقيت تدافع عن كيانها ازاء هجمات الدولة الجديدة وهى دولة الموحدين التى أسقطت دولة المرابطين وحلت محلها فى حكم بلاد المغرب الأقصى ، واستطاعت برغواطة أن تهزم جيوش الموحدين الذين أخذتهم هذه الهزيمة ، وجعلتهم يبذلون كل جهدهم للقضاء على قوة هذه القبيلة حتى يتسنى لهم حكم جميع بلاد المغرب الأقصى .

وتم للموحدين ما أرادوا وتلاشت برغواطة كقبيلة ذات نفوذ ولم نعد نسمع لها ذكرا بعد أن قامت بهذا الدور السياسى الهام الذى عرضنا له فى تاريخ تامسنا بصفة خاصة ، وفى تاريخ المغرب الأقصى بصفة عامة تحت قيادة بنى صالح بن طريف البرغواطى وعاشت عدة قرون كدولة لها كيانها ولها حكامها ولها أرضها ولها شعبها ولها جيشها ولها علاقاتها الخارجية ولها نظامها السياسى الذى تمثل فى قيام حكم ملكى وراثى فى أسرة بنى صالح بن طريف امتد على مدى أكثر من ثلاثة قرون .

وقد أشار البكرى المعاصر لهذه الدولة فى أواخر أيامها الى هذا النظام فقال ان بنى صالح بن طريف كانوا ملوكا يتوارثون الحكم ، وأن طريف بن مالك مؤسس هذه الدولة وأول حكامها كان ملكا وكان « أبا

ملوكهم »(٤٠) . وتتكرر الاشارة عند البكري الى ملوكية طريف والى أن ابنه صالح كان ملكا ، وأخبر صالح ابنه الياس أنه خارج الى المشرق وسيعود اليهم في دولة السابع من ملوكهم(٤١) . ويصور البكرى استيلاء بنى معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف على الحكم بعد وفاة الياس بأنه « استولى على الملك »(٤٢) .

وتتوارد اشارات البكرى عن بقية حكام بنى صالح بأنه ملوك ويختتم حديثه عن هذه الأسرة الحاكمة بقوله ان « برغواطة لم تزل في بلادها معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها الى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرنى وذلك بعد عشرين وأربع مائة من الهجرة فغلبهم على بلادهم »(٤٣) .

فبنو صالح على هذا النحو كانوا ملوكا فى نظر البكرى، وفى نظر غيره من المؤرخين اللاحقين مثل ابن عذارى الذى أكد ما قاله البكرى فى هذا الصدد وأشار الى أن بنى صالح كانوا ملوكا ، والى أنهم كانوا أمراء(٤٤) مثلما كان حكام الأندلس فى نظره أمراء أيضا(٤٥) . ويؤكد ابن خلدون هذا الأمر فيقول أن ما أقامه بنو صالح البرغواطيون كان دولة(٤٦) ، ويرد لفظ الدولة قبل ذلك عند البكرى (٤٧) ويرد بعد ذلك عند السلاوى(٤٨).

والحقيقة أن البرغواطيين المصامدة منذ ما قبل الاسلام وفى صدره

---

(٤٠) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب للبكرى ص ١٣٥

(٤١) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٤٢) المصدر السابق ص ١٣٦

(٤٣) المصدر السابق ص ١٤١

(٤٤) ابن عذارى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٦

(٤٥) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٢٤

(٤٦) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ص ٢٠٦

(٤٧) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٥

(٤٨) الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، جـ ١ ص ١٠٣

وقرونه الأولى كانوا يتقدمون جميع قبائل المصامدة فى بلاد المغرب الأقصى كلها ، وكانت لهم الزعامة على هذه القبائل[٤٩] . ولذلك ليس غريبا أن تكون لهم دولة فى الاقليم الذى كانوا يقيمون فيه من أقاليم المغرب الأقصى وهو اقليم تامسنا ، وظلت هذه الدولة قائمة منذ عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م حتى قضى عليها فى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م مما مهد الأمر أمام مصامدة جبل درن (الأطلس) كى يبرزوا على مسرح التاريخ بعد ذلك بحوالى قرن ويتبوأوا عرش زعامة المصامدة وينشئوا دولة قوية فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م عرفت باسم دولة الموحدين[٥٠] .

وعلى ذلك فان الكيان السياسى الذى أقامه بنو صالح فى اقليم تامسنا كان دولة لها كل شروط الدولة وأركانها التى أشرنا اليها والتى ظهرت واضحة من خلال حديثنا عن تاريخها عبر الصفحات السابقة ، ولم تكن تجمعا قبليا كما قال بذلك أصحاب دائرة المعارف الاسلامية[٥١] . ويبدو أن الأمر كان فى البداية حلفا أو تجمعا قبليا تشكل أثناء ثورة البربر من أصحاب ميسرة المطفرى فى عام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م . وقد أشار السلاوى الى هذه المرحلة فقال ان برغواطة قبائل شتى لا يجمعهم أب واحد ، وانما هم أخلاط من البربر اجتمعوا الى صالح ابن طريف فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م[٥٢] .

وبعد انهيار هذه الثورة والقضاء عليها عاد البربر الى مواقعهم الأولى فى بلاد المغرب الأقصى وأقام بعضهم من مختلف القبائل دولة فى اقليم تامسنا أشار اليها السلاوى أيضا[٥٣] ، وأشار اليها غيره

---

(٤٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٢٠٦
(٥٠) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .
(٥١) دائرة المعارف الاسلامية ، جـ ٧ ص ٦٧ ، ٧٠ .
(٥٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ ١ ص ١٠٣
(٥٣) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .

من المؤرخين الذين عرضنا لهم من قبل . وكان على رأس هـذه الدولة برغواطة وزعيمها طريف بن مالك الذى كان أول ملوكها ، ولما مات خلفه فى حكمها ابنه صـالح ، وبقى الحكم فى يد بنى صالح يحكمون هذه المنطقة ملوكا لها حوالى ثلاثة قرون من الزمان ، متخـذين النظـام الوراثى فى الحكم مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من حكام الدول الاسلامية المعاصرة لهم ، قائمين بدورهم السياسى فى هذه المنطقة من بلاد المغرب الأقصى ، هـذا الدور الذى عرضنا له ودعمته عوامل عديدة ، أظهرت قدرة الدولة وامكانياتها على الصمود والبقاء طوال هذه المدة ، وأظهرت شـيئا من حضارتها وعمرانها .

(٦)

بعض مظاهر الحضارة فى دولة بنى صالح بتامسنا

توافر لاقليم تامسنا امكانيات اقتصادية كبيرة جعلت منه مكانا مناسبا لقيام دولة بنى صالح فى هذا الاقليم ، كما أدت هذه الامكانيات الى ازدهار هذه الدولة وصمودها أمام المحن والغزوات التى تعرضت لها ، وساعدتها فى القيام بالدور السياسى والعسكرى الذى قامت به وعرضنا له . وتتجلى هذه الامكانيات الاقتصادية فى نشاط السكان الذى يشمل عددا من الحرف والمهن مثل الزراعة والصيد والتجارة .

١ ـ الزراعة :

ازدهرت الزراعة فى عصر دولة بنى صالح بتامسنا نتيجة لأمور عديدة منها توافر المياه والأرض الصالحة للزراعة . فبخلاف الأمطار التى كانت تسقط على تامسنا وجد العديد من الأنهار الكبيرة والصغيرة التى وفرت المياه لرى الأودية العديدة التى تحفل بها . ذلك أن دولة تامسنا اشتملت على أحد الأنهار الأربعة الرئيسية الكبرى[١] الموجودة فى بلاد المغرب الأقصى ، وهو النهر المعروف باسم أم الربيع[٢]

---

(١) الأنهار الرئيسية الاربعة في بلاد المغرب الاقصى هى أم الربيع ، وملوية ، وسبو ، ودرعة ، أما الأنهار الصغرى فهى بهت وأبو رقراق وتنسيفت والسوس .
انظر : الحسن الوزان : وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٧

(٢) نهر أم الربيع المعروف باسم وادى أم الربيع نهر كبير جدا ينبع من جبال الأطلس عند حدود اقليم تادلا وناحية فاس ، ويجرى عبر سهول اوخسان التى تسمى سهل خنيفرة ، ثم يخترق شعابا ضيقة ويتجه شطر الغرب ليمر عبر سهول بين دكالة وتامسنا الى أن يصب فى المحيط الأطلسى قرب مدينة آزمور ، وهذا النهر نهر خرار نعبره المراكب سريع الجريان كثير الانحدار كثير الصخور والجنادل تصب فيه بعض الروافد الصغيرة ، ولا يمكن اجتيازه فى فصلى الشتاء والربيع حيث يفيض بالماء ، ويصطاد منه الناس كميات وافرة من
=

الذى يحيط بتامسنا من الشرق والجنوب . ويقع جنوب هذا النهر نهر صغير يعرف باسم وادى تنسيفت(٣) .

أما فى شمالى بلاد تامسنا يقع نهر صغير يعرف باسم أبى الرقراق(٤)، هذا بخلاف ما يوجد فى تامسنا من الانهار الصغيرة والاصغر . والدليل على ذلك أن البكرى ذكر نقلا عن رجل من برغواطة أن بلاد تامسنا تحتوى على أزيد من مائة نهر جارية أعظمها نهر ماسنات الذى يجرى من القبلة أى من الشرق ، الى الجوف أى الى داخل البلاد ويمتد مسيرة ستة أيام حتى يصب فى المحيط الأطلسى . ونهر وانسيفن الذى يتصل بنهر

=

السمك يتغذى به جميع سكان آزمور ، ويصدر منه كميات وفيرة الى بعض بلدان البحر المتوسط مثل ايطاليا والبرتغال .

انظر : الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٣٧ ، المراكشى : تاريخ الأندلس المسمى بالمعجب ، ص ٢٠٥ ، الحسن الوزان : وصف افريقيا ، جـ ٢ ص ٢٤٧

(٣) ينبع وادى تنسيفت من جبال درن (الأطلس) كغيره من الأنهار الأخرى ويتجه الى الشمال ثم الى الغرب مخترقا سهولا واسعة حتى يصب فى المحيط الأطلسى باقليم آسفى من ناحية دكالة . ويعتبر هذا النهر من الأنهار التى ليست بالكبيرة ولكنه دائم الجريان ويفيض زمن الشتاء حتى يصير سيلا لا يبقى ولا يذر ، حتى أنه أطاح ذات مرة بقنطرة عجيبة البناء متقنة الصنع شيدها عليه مهندسون اندلسيون جلبهم امير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين .

انظر : الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٣٥ ، الحسن الوزان: وصف افريقيا ، جـ ٢ ص ٢٤٥

(٤) ينبع نهر ابى الرقراق من احد الجبال المتفرعة من جبال الأطلس ، ويمر عبر شعاب وغابات كثيرة ، ثم يخرج بين تلال فى سهل ليصب فى المحيط الأطلسى بين مدينتى سلا والرباط حيث يكون الحد الشمالى لاقليم تامسنا او السوس الأدنى . ويصعب على السفن دخول هذا النهر الا بدليل محنك من قوم يعرفون بوقاصة ، نسبة الى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، والا جنحت السفينة على الرمال ، ولذلك سهل الدفاع عن سلا والرباط ضد اى هجوم يقع عليهما من ناحية البحر .

انظر : ابن سعيد : بسط الارض ، ص ٧٢ ، الحسن الوزان : وصف افريقيا ، جـ ٢ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨

سلا قرب مدينة الرباط(٥) ، مما يدل على أنه هو النهر الذى تقع عليه قرية مكول . ولم يرد ذكر لهذا النهر ولا لنهر ماسنات عند الادريسى أو الحسن الوزان .

وعلى ذلك فقد توافرت لبلاد تامسنا أنهار عديدة تحف بها أودية واسعة ، كما توافرت لها أيضا سهول ساحلية تمتد بطول الساحل من سلا وتتجه جنوبا الى آزمور وآسفى ، وتضرب فى عمق البلاد شرقا فى اتجاه جبال الأطلس . وهذه السهول الساحلية التى تمتد من الساحل الى جبال الأطلس كانت من الأهمية بمكان حتى أن واحدا من الرحالة القدامى أشار اليها وقال عنها انها من أشهر وأجود سهول المغرب الأقصى(٦) ، كما أشار الى ذلك أحد المؤرخين المحدثين وقال ان سهل شاوية — وهو الاسم الحديث الذى ورد لأول مرة عند الحسن الوزان لاقليم تامسنا(٧) — من أشهر سهول المغرب الأقصى بجانب سهل دكالة وعبدة(٨) .

ولا شك أن الأودية العديدة التى أشرنا اليها والتى تخترقها الأنهار التى تحدثنا عنها والتى تشتمل عليها بلاد تامسنا ، وكذلك السهول الساحلية التى أشرنا اليها ، أعطت هذا الاقليم امكانيات زراعية واسعة . يتبين ذلك من خلال وصف الجغرافيين والرحالة المسلمين الذين زاروا هذا الاقليم وتحدثوا عن المدن والقرى التى احتوى عليها .

فرغم الدمار والخراب الذى ألم بهذه المنطقة من جراء النزاعات السياسية وقيام الدول وانهدامها ، فان الصورة التى رسموها صورة مشرقة رغم الألم والحسرة التى كانت تنتاب بعضهم من حين لآخر حينما

---

(٥) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٤١
(٦) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ٧٢
(٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٣
(٨) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ١٦

كانوا يرون بعض المدن وقد خربت ، والبساتين وقد اندثرت ، والمزارع وقد تحولت الى غابات وأشجار غير مثمرة[٩] .

ويتبين ازدهار الزراعة فى بلاد تامسنا من الاشارات العديدة التى وردت عند الادريسى الذى أشار الى وفرة المحاصيل الزراعية وخاصة الحبوب مثل القمح الذى كان فى غاية الرخص[١٠] ، والذى بلغ من الوفرة حدا كبيرا حتى صار الناس أحيانا يستبدلون حمل جمل كبير منه بنعلين[١١] ، وذلك فى احدى مدن تامسنا وهى مدينة النخيلة التى تقع وسط هذه البلاد بين الرباط ومراكش ، والتى كان سكانها فى غاية الغنى لاتساع أراضيهم التى كانت تشتمل من كل جانب على خمسين ميلا من السهول التى كان يزرع فيها محصول القمح وغيره من المحاصيل الأخرى[١٢] .

وتكثر الاشارات عن توافر القمح أو الحنطة فى بلاد تامسنا فيذكر الادريسى أن قرية أم الربيع التى تقع فى جنوب الوادى الذى سمى باسمها وهو وادى أم الربيع والذى سبق الحديث عنه ، بها « حنطة فى نهاية الرخص »[١٣] كما يذكر الحسن الوزان أن أهل مدينة بولعوان التى تقع على ضفة النهر فى منتصف الطريق بين فاس ومراكش ، كانوا من أغنى الناس وأثراهم ، اذ كان لكل واحد منهم حوالى مائة زوج من الثيران ، وعنده محصولات زراعية تبلغ حوالى ثلاثة آلاف حمل جمل ، منها ألف حمل من القمح الذى كان الأعراب يشترونه منهم ويتزودون به للعام كله[١٤] .

---

(٩) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦
(١٠) نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٣٧
(١١) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٩٩
(١٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٩٩
(١٣) نزهة المشتاق ، جـ ص ٢٣٧
(١٤) وصف افريقيا ، جـ ١ ص ١٥٥

وقـد أشـار الادريسى إلى غير القمح من الزروع والثمار التى اشتهرت بها تامسـنا مثل القطن والكروم والشعير والحمص حتى أصبح الطعام رخيصا جدا[١٥] . كما أشار الحسن الوزان الى وفرة أشجار التين التى كانت تحيط بأطلال مدينة زرفة حتى أصبحت هذه المدينة تبدو من بعيـد وكأنها غابة ، كما كانت تكثر فى أرباضها أيضا أشـجار النبق وأشجار الدوم وغير ذلك من الأشجار والثمار نظرا لخصـوبة أراضيها ولكثرة عيونها وجداولها . وقد تعرضت هذه المدينة للخراب والدمار أثناء حروب بنى صالح مع معارضيهم وخصومهم ، وسـكنها أعراب تامسـنا وزرعوا أرضها ، وكانوا يحصلون منها على غلات طيبة تبلغ أحيانا خمسين ضعف ما زرعوا[١٦] .

وكذلك كانت تكثر المروج الخضراء حول مدينة آنفـا (الدار البيضاء) حتى قيل عنها أنها مدينة فى غاية الحضارة والازدهار ، لأن أرضها خصبة تصلح لزراعة جميع أنواع الحبوب ، وتمثل فى الواقـع أجمل منظر فى افريقيا كلها ، اذ يحيط بها من جميع جهاتها عـدا الغرب الذى اعتبره الحسن الوزان شمالا ، سهل فسيح يمتد مسافة تبلغ نحو ثمانين ميلا[١٧] .

ويشير الحسن الوزان الى ما كانت تمثله هذه المدينة من حضارة وازدهار زراعى قبل أن يدمرها البرتغاليون ، فيقول فى لوعة وأسى : « كم كان فى داخل آنفا من بساتين وكروم ما زالت لحد الآن تجنى منها كميات عظيمة من الثمار ، لا سيما البطيخ والخيار والتى يبدأ نضجها فى منتصف ابريل . وقد اعتاد الناس أن يحملوا هذه الثمار الى فاس ، لأن نضجها فيـه يتأخر »[١٨] .

---

(١٥) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(١٦) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦
(١٧) المصدر السـابق ، ج ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .
(١٨) وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٩٧ .

وعندما يتحدث الادريسى الذى عاصر نهاية قبيلة برغواطة على يد عبد المؤمن بن على زعيم الموحــدين ، والحسن الوزان الذى كتب عن هــذه النهــاية ، عن غير ذلك من المدن والقرى والأودية والســهول الخصبة التى جادت فيها المحاصيل التى أشرنا اليها ، فانهما يشــيران أيضــا الى الجــداول والعيــون الكثيرة الدفاقة بالمــاء ، والى كثرة البساتين والحدائق والزروع والمواشى والابل والبقر والغنم الذى كان يكفى حاجة الناس ويفيض ويصدر هذا الفائض الى الخارج(١٩) .

٢ ــ الصـــيد :

وبجانب مهنة الزراعة التى اشتغل بها أهل تامســنا ، كانت هناك أيضا مهنة الصيد ، حيث قام كثير منهم بصيد طيــور النعام التى كانت وفيرة العدد فى كثير من أنحاء تامسنا . وقد أشــار الادريسى الى هذه الوفرة فى ناحيــة تقع تجاه قرية من قرى تامسنا تســمى أنقال ، فقال انه كان يوجد فيها عدد من طيــور النعام لا يعد ولا يحصى ، وكان أهل هذه الناحية والنواحى الأخرى المحيطة بها يقومون باصطياد هــذه الطيــور على متن خيــولهم فيحصلون منها على عــدد قليــل أو كثير ، ويحملون بيضها الذى لا يحاط به كثرة الى جميع البلاد ، وان كان أكله غير صحى لأنه يفســد المعدة . وأما لحوم النعام فكانوا ينتفعون بها كما كانوا ينتفعون بشحومها فى العلاج من الصمم ومن سائر الأوجاع البدنيــة(٢٠) .

ونظرا لوجود غابات كثيرة فى بلاد تامســنا فقد عاشت فى هــذه الغابات حيوانات مفترســة كالأسود وغيرها . وكان أهالى تامســنا يقومون بصيد هذه الأسود دون خوف منها . ويقول الادريسى أن قرية من قرى تامســنا تسمى اكسس يوجد بها « بيت متخذ لصيد الأسود

(١٩) الادريسى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، الحسن الوزان ، جـ ١ ص ١٩٨ ــ ٢٠٦

(٢٠) نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨

حتى انه ربما صيد منها فى الجمعة الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك والأقل »(٢١) . كما يشير الى طريقة صيد هذه الأسود فيقول « أن الصيادين كانوا يلقونها بأنفسهم عراة يلقون أكسيتهم على أذرعهم ويمسكون معهم قنات من شوك السدرة ، وسكاكينهم فى أيديهم لا غير » . ولذلك هابتهم الأسود وتجنبت طرقهم ومسالكهم(٢٢) .

وبجانب صيد النعام والأسود كان الأهالى يصطادون الأسماك التى كانت توجد بوفرة فى الأنهار التى توجد فى بلادهم وكذلك فى مياه المحيط الأطلسى المطل على ساحل هذه البلاد . والمثال على ذلك هو نهر صغير يسمى نهر أسمير الذى تقع عليه مدينة شالة القديمة وسلا الحديثة . فقد وجد فى هذا النهر الصغير وحده أنواع كثيرة من السمك وضروب عديدة من الحيتان حتى أصبح الحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته ووفرته(٢٣) .

وقد سبقت الاشارة الى أن نهر أم الربيع الذى يحيط بتامسنا من الشرق والجنوب وهو من أكبر أنهار بلاد المغرب الأقصى ، يصطاد منه الناس كميات وافرة من السمك يتغذى به جميع سكان مدينة آزمور ، ويفيض عن حاجتهم ويصدر منه كميات وفيرة الى بعض بلدان البحر المتوسط مثل ايطاليا والبرتغال(٢٤) . وقد اشتهرت مياه آزمور بوجود كميات كبيرة من نوع من السمك يسمى الشابل كانوا يصطادونه ويتغذون بلحمه ، أما شحمه الوفير الذى يتميز به هذا النوع من السمك فقد كانوا يستخدمونه فى الاضاءة بدل الزيت الذى لا يوجد فى بلادهم(٢٥) .

(٢١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨

(٢٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٧

(٢٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٩

(٢٤) انظر ، هامش ٢ ص ١١٢

(٢٥) الحسن الوزان : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٧

وبخلاف الثروة الزراعية والنباتية والحيوانية والسمكية الوفيرة التى تميزت بها بلاد تامسنا ، فانها اشتملت أيضا على بعض المعادن وخاصة معدن الحديد الذى كان يوجد ويستخرج بكثرة من واد يقع قرب احدى مدن تامسنا تسمى أدندون ، كما كان يوجد أيضا فى مكان بتامسنا يسمى ابسنتار يقع بين سلا ومراكش بالقرب من ساحل المحيط الأطلسى(٢٦) .

وقد تسبب وجود هذا المعدن فى بعض نواحى تامسنا الأخرى فى انشاء بعض المدن ، مثل مدينة « معدن عوام » التى بناها بعد انتهاء عصر بنى صالح أحد أمناء الخليفة الموحدى عبد المؤمن على ضفة نهر أبى الرقراق بعد أن لاحظ وجود منجم حديد هناك يتردد الناس عليه كثيرا(٢٧) .

٣ — التجارة :

أدت وفرة الزروع والثمار والمحاصيل والماشية والحيوانات والأسماك الى قيام تجارة داخلية وخارجية مزدهرة . أما التجارة الداخلية فقد تميزت بأسواقها النافقة التى كان يؤمها عدد كبير من الناس والتجار حيث كانوا يبيعون ويشترون ويتبادلون السلع والمحصولات .

---

(٢٦) أدندون مدينة صغيرة مبنية بين تلال على بعد نحو ٢٥ ميلا من الأطلس و ٢٥ ميلا من مدينة النخيلة . وقد دمرت هذه المدينة اثناء الحروب التى قام بها ملوك بنى صالح لفرض مذهبهم على أهلها ولم يبق منها الا آثار قليلة كأسس الجدران وبعض السوارى المنهارة .
انظر : الحسن الوزان : وصف افريقيا ، جـ ١ ص ١٩٩ ، المراكشى : تاريخ الاندلس المسمى بالمعجب ، ص ٢٠٤
انظر ، الحسن الوزان : وصف افريقيا ، جـ ١ ص ١٩٩
(٢٧) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤
ظلت مدينة معدن عوام فى غاية التحضر والعمران طوال حكم الموحدين مزدانة بمنازل ومساجد وفنادق جميلة ، ولكنها خربت عند سقوط دولة الموحدين وقيام دولة المرينيين التى اعقبتها ، اذ دمرها يعقوب بن عبد الحق المرينى اثناء زحفه على مراكش فى عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م .
انظر : الحسن الوزان ، جـ ١ ص ٢٠٤ ، هامش ١٦ نفس الصفحة .

والمثال على ذلك هو سوق مدينة النخيلة التى أشرنا اليها والتى لا زال مكانها معروفا بهذا الاسم حتى اليوم جنوبى مدينة الرباط على بعد حوالى أربعين كيلو مترا . اذ كان يقام فى هذه المدينة كل سنة سوق يشد اليها الرحال من جميع نواحى وبلاد تامسنا[٢٨] ، مما أدى الى غنى أهلها واتساع ثرواتهم كما سبق القول .

ويشير الادريسى الى سوق احدى قرى تامسنا وهى قرية مكول التى تقع شمال وادى أم الربيع على بعد مرحلة من أنفال ، ويقول ان هذه القرية كالحصن الكبير عامرة بالبربر ، ولها سوق نافقة بما يجلب اليها من جميع المتاجر والسلع التى يحتاج اليها أهلها[٢٩] .

أما التجارة الخارجية لدولة بنى صالح فى تامسنا فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا مع جميع البلدان المجاورة سواء داخل بلاد المغرب الأقصى أم خارج هذه البلاد وخاصة مع الأندلس . وقد راجت تجارة تامسنا مع الأندلس بالذات لسببين ، السبب الأول هو قيام علاقات مودة وصداقة ربطت بين حكام الدولتين سبقت الاشارة اليها[٣٠] . والسبب الثانى هو وفرة الموانى الصالحة لرسو السفن والتى كانت تقع على ساحل تامسنا الطويل الذى يبدأ فى الشمال من سلا وينتهى فى الجنوب الى مدينة آسفى .

وقد استقبلت هذه الموانى السفن القادمة من الأندلس وبادلتها السلع والمتاجر مما نتج عنه غنى وثراء وافر لأهالى تامسنا أشار اليه الادريسى فى حديثه عن هذه الموانى . فقال عن ميناء سلا أن أهلها كانوا على ثراء عظيم بسبب النشاط التجارى الذى كانوا يمارسونه مع التجار الوافدين اليهم بحرا من اشبيلية وسائر المدن الأندلسية .

---

(٢٨) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، هامش ١٠ ص ١٩٨

(٢٩) نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٣٨

(٣٠) انظر : ص ٦٤ — ٦٧

وكانت السفن الأندلسية التى ترد الى سلا لا تستطيع الرسو أمامها فى البحر ، لأن مرساها مكشوف ، ولذلك كانت تدخل وادى أسمير الذى سبقت الاشارة اليه والذى تقع عليه من ناحية الجنوب مدينة شالة القديمة ، ومن الشمال مدينة سلا الحديثة ، يساعدها فى ذلك المد والجزر الذى يدخل هذا الوادى مرتين فى اليوم ، فمع المد كانت تدخل السفن الى الوادى ومع الجزر كانت تخرج منه الى المحيط الأطلسى[٣١] .

وبسبب هذا النشاط التجارى ازدهرت مدينة سلا ازدهارا كبيرا فكانت منازلها تتزين بالفسيفساء وأعمدة الرخام ، أما مساجدها فقد بنيت بطريقة غاية فى الجمال والزخرفة وانتشرت دكاكينها تحت أروقة كبيرة جميلة ، مما يدل على أنها بلغت قدرا كبيرا من الترف والبذخ والتقدم الحضارى الواضح ، ولم يكن ذلك الا بفضل موقعها وبفضل مينائها الذى كان مهبطا للتجار الأجانب من مختلف الجنسيات من جنويين وبنادقة وانجليز وفلامانديين ، بخلاف الأندلسيين الذين أشرنا اليهم ، مما جعل هذا الميناء ميناء ليس لتامسنا وحدها بل لاقليم فاس أيضا[٣٢] .

وقد سبق الحديث عن النشاط التجارى الكبير الذى كان قائما بين بلاد تامسنا وبين بلاد الأندلس ، وعن ميناء فضالة الذى يقع الى الجنوب من ميناء سلا والذى كانت ترد اليه السفن الأندلسية وغيرها من سفن البلاد الأوربية فتحمل الحنطة والشعير والفول والحمص والغنم والماعز والبقر[٣٣] . وقد وقع جنوب هذا الميناء ميناء آخر أكثر أهمية هو ميناء آنفا التى سبق الحديث عنها وعن ازدهار حضارتها . وآنفا من المدن القديمة التى كانت موجودة فى بلاد

---

(٣١) نزهة المشتاق ، جـ ١ ص ٢٣٩
(٣٢) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٠٧ — ٢٠٨
(٣٣) انظر ، ص ٦٧

تامسنا قبل ظهور الاسلام ، وهى من بناء الرومان وتقع على بعد نحو ستين ميلا من جبال الأطلس ، ونحو ستين ميلا من مدينة آزمور التى تقع فى جنوبها[٣٤] . وكانت السفن تأتى الى هذا الميناء وتحمل منه الحنطة والشعير[٣٥] .

ويذكر الادريسى وابن سعيد المغربى عددا آخر من المراسى أو الموانى التى تقع بين هذا الميناء وبين ميناء آسفى . مثال ذلك مرسى مازيغن (أمازيغان) الذى يبعد عن آنفا بخمسة وستين ميلا والذى تحمل منه السفن القمح الى سبتة وغيرها ، ومرسى الغيط الذى يبعد عن المرسى السابق بثمانين ميلا ، ويقول الادريسى عن المرسى الأخير أنه مرسى حسين تصل اليه المراكب فتخرج منه محملة بالحنطة والشعير ، وتتصل به دكالة ، وهى احدى قبائل مصمودة التى كانت تسكن هذه المنطقة أو هذا الاقليم الذى تسمى باسمها والذى كان يقع الى الجنوب من اقليم تامسنا ، ولذلك كانت دكالة على صلات تجارية مع اخوانهم من بنى صالح البرغواطيين المصامدة[٣٦] .

وبين المينائين السابقين وهما مينائى مازيغن والغيط ، يوجد ميناء هام آخر هو ميناء آزمور الذى لم يذكره الادريسى وذكره ابن سعيد المغربى كما ذكره الحسن الوزان وجعله يقع فى اقليم دكالة المصمودية[٣٧] . وقد كان هذا الميناء ضمن مملكة تامسنا أيام بنى صالح والتى امتدت أراضيها فى عهدهم الى هذا الميناء والى ميناء آخر يقع جنوبه هو ميناء آسفى الذى يعتبر آخر الموانى والذى تنتهى به مملكة تامسنا .

---

(٣٤) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٩٦
(٣٥) الادريسى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٤٠
(٣٦) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ابن سعيد : نفس المصدر ، ص ٧١
(٣٧) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ، ص ٧١ ، الحسن الوزان : وصف افريقيا ، جـ ١ ص ١٥٧ — ١٥٩

وقد أشار الادريسى الى الظروف التى أدت الى تسمية هذا الميناء بهذا الاسم والتى تحدثنا عنها[٣٨] ، وأضاف الى ذلك فى مكان آخر بأنه كان « فيما سلف آخر مرسى تصل اليه المراكب ، فأما الآن فهى تجوزه بأكثر من أربعة مجار ... والمراكب تحمل منه أوساقها فى وقت السفر وسكون حركة البحر المظلم »[٣٩] .

ونتيجة لتعدد وكثرة الموانى الصالحة لرسو السفن كما رأينا ، ازدهرت بلاد تامسنا وراجت تجارتها سواء مع الدول الخارجية أو مع الممالك التى قامت بجوارها وحولها فى بلاد المغرب الأقصى . وقد سبقت الاشارة الى تجارتها مع الأندلس ومع فاس ومع سجلماسة ومع سكان الصحراء[٤٠] ، مما أدى الى ازدهارها وازدياد عمرانها وكثرة مدنها وقراها .

٤ ـ ازدهار العمران والحضارة فى تامسنا :

يتبين هذا الازدهار من حديثنا عن المدن والموانى الساحلية التى أشرنا اليها مثل سلا ، وفضالة ، وآنفا ، ومازيغن ، والغيط ، وآزمور ، وآسفى ، وكذلك من حديثنا عن المدن الداخلية التى أشرنا اليها أثناء حديثنا عن الثروات الزراعية والنباتية والحيوانية والمعدنية ، مثل مدينة النخيلة ومدينة أدندون وقرية أنقال وأكسيس .

وبخلاف هذه المدن الساحلية والداخلية هناك عدد وافر من المدن والقرى الأخرى ضمتها بلاد تامسنا . يتبين ذلك من قول الحسن الوزان أنه كان بتامسنا « نحو أربعين مدينة وثلاثمائة قصر يسكنها عدد من قبائل البربر »[٤١] . من هذه المدن مدينة تسمى أمسلاخت أشار اليها

---

(٣٨) انظر ، ص ٦٧
(٣٩) نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٤٠
(٤٠) انظر ، ص ٦٤ ، ٦٦ — ٦٧
(٤١) وصف افريقيا ، ج ١ ص ١٩٤

البكرى الذى عاصر نهاية دولة بنى صالح وقال ان أحد ملوكهم وهو عبد الله أبو الأنصار دفن فى هذه المدينة فى عام ٣٤١هـ/٩٥٢م(٤٢).

وقد ذكر الادريسى والحسن الوزان عدداً من المدن والقرى الأخرى لعلها كانت ضمن هذا العدد الذى ذكره الحسن الوزان ، منها مدينة تامسنا التى كانت تقع على وادى أم الربيع والتى سمى بها اقليم تامسنا ، وقد ازدحمت هذه المدينة بقبائل شتى من البربر منها برغواطة ومطماطة وبنو تسلت وبنو أويقمران وزقارة وبعض من زناتة وبنو يجفش . وقد اشتهرت هذه القبائل بالفروسية وكان ذلك سببا من أسباب قيام مملكة بنى صالح واستمرارها هذه المدة الطويلة(٤٣) .

كما وقعت على نهر أم الربيع قرية أم الربيع التى تسمى باسمها وادى أم الربيع والتى سبقت الاشارة اليها والتى اشتهرت بزراعة القمح والقطانى والقطن والكمون ، وبتربية الماشية حتى كثرت ألبانها وسمنها وخيراتها(٤٤)

ومن قرية أم الربيع حتى مرسى فضالة تقع سلسلة من القرى منها قرية ايغيسل التى تقع شمال وادى أم الربيع ، وكانت قرية حسنة بها عيون كثيرة دفاقة بالماء الذى ينبع بين صخور صلدة والذى كانوا يسقون منه زروعهم ومواشيهم(٤٥) . وقرية أنقال التى تبعد عن القرية السابقة بمرحلة ، ثم قرية مكول التى تبعد عن أنقال بمرحلة أيضا وتقع على أبطح ويتصل بها فحص يقال له فحص خراز طوله اثنا عشر ميلا لا ماء به . وقد اشتهرت بسوقها النافقة التى كانت تجلب اليها المتاجر والسلع الكثيرة(٤٦) .

---

(٤٢) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٣٧
(٤٣) الادريسى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧
(٤٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٧
(٤٥) المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة .
(٤٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨

وبخلاف هذه القرى هناك عدد آخر من المدن العامرة اشتملت عليها بلاد تامسنا ، منها مدينة قديمة تسمى شالة ، وكانت تقع على بعد ميلين من المحيط الأطلسى على ضـفة نهر اسمير الذى يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة ، وعلى بعـد ميل واحد من مدينة الرباط الحالية التى تقع فى اقليم تامسـنا . ومدينة شـالة من بنـاء الرومـان وظلت مدينـة مزدهرة فى عهد بنى صالح حتى وقعت الحروب بينهم وبين معارضيهم فأصابها الخراب والدمار ، ويتصل بما بقى منها من مبان عمارات وفيرة وزروع ومواش كثيرة لأهل سـلا القريبة منها[٤٧] .

وقد صارت هذه المدينة بعد أن عمرها الموحدون مدفنا لملوكهم منذ عهد المنصور الموحدى الذى أمر ببناء أسـوارها وشـيد فيها زاوية فاخرة ، وقصرا لسكنى جنوده ، وجامعا فى غاية الروعة والجمال مـع قاعة بديعة الزخرف مزينة بالرخام المنحوت والفسيفساء ، والنوافذ ذات الزجاج الملون ، وأوصى أن يقبر فى تلك القاعة . وبعـد وفاته نقـل جثمانه من مدينة مراكش ودفن فيها ، واحتفظ ملوك هذه الدولة بهـذا التقليد فصاروا يقبرون فى هذه القاعة ، وسار على ذلك ملوك بنى مرين فى عهد ازدهار دولتهم[٤٨] .

ومن المدن الزاهرة فى عهـد بنى صـالح مدينـة تغت أو تغيت أو تكيت ، وهى مدينة صغيرة من بناء البربر تقع على ضفة أم الربيع فى ملتـقى الطريق المؤدى من تادلا الى فاس ، والطريق الذى يخترق جبال الأطلس وينفذ الى الصحراء . وكان سـكان هذه الصحراء من البربر يأتون عبر هذا الطريق الى تغيت لشراء ما يلزمهم من القمح الذى كان يكثر فى هـذه المدينـة ، ولذلك انتعشت أحـوالها التجـارية نظرا لوقوعهـا على هـذين الطريقين اللذين كانا معبرا للتجـارة ،

---

(٤٧) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٠٣

(٤٨) الحسن الوزان : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٠٣

فتألقت حضارتها وازداد سكانها وكثر عمرانها . ولكن الخراب ما لبث أن أصابها نتيجة للحروب التى قام بها بنو صالح مع معارضيهم من السكان ، ثم عاد اليها العمران بعد مدة طويلة ، غير أنها لم تعد الا قرية صغيرة يستخدمها الأعراب كمخزن لحبوبهم التى كانوا يكلون حراستها الى السكان . وكان هؤلاء السكان يحسنون استقبال جميع الغرباء الذين يمرون بمدينتهم وخاصة التجار الذين كانوا يدفعون لهم رسوما مالية نظير ما يحملونه من بضائع وأقمشة(٤٩) .

وغير مدينة تغيت هناك مدينة أخرى تسمى عين الحلوف ، وهى من المدن القديمة وتقع على رافد صغير يصب فى المحيط الأطلسى يسمى نهر تفيفيخ الذى يدعى فى مجراه الأعلى باسم نهر (دير) . ولا تبعد هذه المدينة عن مدينة المنصورة التى بناها المنصور الموحدى ملك مراكش والتى تقع الى الشمال منها على نفس النهر المشار اليه ، وعلى بعد ميلين من المحيط ونحو خمسة وعشرين ميلا من الرباط(٥٠) .

وهذه المدينة مبنية فى سهل توجد فيه بعض أشجار الغبيراء وبعض الأشجار الشوكية الأخرى التى تعطى ثمارا مستديرة تشبه العناب الا أنها صفراء اللون ، نواتها أكبر من نواة الزيتون ومذاق لبها غير مستحسن ، وتحيط بها مستنقعات تكثر فيها السلاحف البرية والمائية. ولم يذكر أحد من المؤرخين الأفارقة هذه المدينة لقلة أهميتها(٥١) .

ومن مدن تامسنا أيضا مدينة تاغية ، وهى مدينة قديمة بناها البربر بين جبال الأطلس ، مساكنها رديئة البناء ، وأراضيها الزراعية هزيلة وعرة قليلة الانتاج ، ولذلك لا يزرع القمح فيها الا قليلا ، وان كان

---

(٤٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠
(٥٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٨ ، هامش ٩ ص ١٩٨ ، ص ٢٠٠ — ٢٠١
(٥١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١

يكثر فيها الماعز ونحل العسل ، وتتميز بغاباتها الرائعة المحيطة بها والتى يسكنها كثير من الأسود[٥٢] .

أما مدينة زرفة فهى من المدن القديمة التى أسسها البربر أيضا فى اقليم تامسنا فى سهل فسيح وجميل جدا حيث يوجد الكثير من الجداول والعيون ، ويحيط بأطلالها عدد وفير من أشجار التين وغير ذلك من الأشجار المثمرة ، كما اشتهرت بأراضيها الخصبة التى كانت تجود فيها زراعة القمح الذى كان أهلها يحصدون منه كميات وفيرة . غير أن الدمار لحق بهذه المدينة نتيجة للحروب التى نشبت بين بنى صالح وخصومهم[٥٣] .

ويقع على ضفة نهر أم الربيع الجنوبية عدد من المدن ، منها مدينة السبيت التى كانت تخضع لأعراب دكالة وتنتج أراضيها الزراعية المحيطة بها كثيرا من القمح والعسل[٥٤] . ومدينة ترغا التى تبعد عن آزمور بنحو ثلاثين ميلا ، وكانت مدينة آهلة بالسكان وتخضع هى الأخرى لأعراب دكالة[٥٥] . ومدينة بولعوان التى تقع على ضفة النهر فى منتصف الطريق بين فاس ومراكش ، وكان أهلها من أغنى الناس وأكثرهم ثراء نتيجة لمحصول القمح الوفير الذى كانت تنتجه هذه المدينة وتصدره للبلدان المجاورة وخاصة أعراب الصحراء[٥٦] . يضاف الى ذلك مدن داخلية أخرى مثل مدينة قنط[٥٧] ، ومدينة مائة بير[٥٨] ، ومدينة تيط[٥٩] ، ومدينة مرامر[٦٠] .

---

(٥٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥
(٥٣) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٦
(٥٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٤
(٥٥) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٤ — ١٥٥
(٥٦) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٥
(٥٧) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٢
(٥٨) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٣
(٥٩) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٢
(٦٠) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٩

وهكذا احتوت بلاد تامسنا على عدد وافر من المدن والقرى ، وبطبيعة الحال فاننا لم نذكر الا المدن والقرى التى كانت موجودة فى عهد بنى صالح البرغواطيين ، ولم نتعرض للمدن التى بنيت بعد ذلك • ومع أن الحسن الوزان أشار الى أن مدن تامسنا بلغت أربعين مدينة وثلاثمائة قصر كما سبق القول ، الا أن المصادر لم تشر الى أسماء كل هذه المدن ولم تتحدث عنها فى تفصيل كبير • ومع ذلك فان عدد القرى والمدن الذى ذكرناه عدد وفير يدل على تقدم العمران وازدهار الحضارة فى عصر بنى صالح فى تامسنا •

وكما رأينا فقد اشتهرت هذه المدن بامكانياتها الزراعية والحيوانية والسمكية والمعدنية ، مما جعلها هدفا للتجار الذين قصدوها من كافة المدن والبلدان المجاورة ، ومن بلدان الأندلس وغيرها من البلاد الأوربية ، ساعد على ذلك حسن موقعها وكثرة موانيها وكثرة مسالكها ، وعدالة حكامها ، مما أدى الى ازدياد ثروتها وغنى أهلها وانتشار الأمن فى ربوعها •

وكان لذلك أثره فى ازدياد عمرانها وتألق حضارتها ، وأثره أيضا فى استمرار دولة بنى صالح فى حكم هذه المنطقة الهامة من بلاد المغرب الأقصى لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، ولم يقض على هذه الدولة الا تلك الضربات المتتالية التى تعرضت لها والتى كان آخرها تلك الضربة التى وجهها المرابطون لها فى عام ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م ، مما أدى الى انهيارها كدولة ، ولكنها لم تقض على برغواطة كقبيلة حيث كان لها دورها فيما بعد أمام الموحدين الذين هاجموها بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان •

وهكذا أدت دولة بنى صالح دورها السياسى والحضارى فى هذه البقعة من بلاد المغرب الأقصى ، وهو دور كان فى حاجة الى من يزيل عنه سمة التجاهل والغموض ، ويبرزه أمام القراء والدارسين • ونرجو أن نكون قد وفقنا ، وما التوفيق الا من الله ، عليه نتوكل واليه ننيب •

خاتمة

يمكننا بعد استعرضنا التاريخ السياسى والحضارى لدولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الأقصى أن نذكر بعض النتائج التى ترتبت على هذا الدور ، وهى نتائج عديدة ، منها أن أهل تامسنا من قبائل برغواطة ومصمودة ومطماطة وزناتة وصنهاجة وغيرها من القبائل الأخرى التى سكنت هذا الأقليم ، كانت قد اعتنقت الاسلام على يد الفاتحين العرب ، فبعض هذه القبائل اعتنقته على يد عقبة بن نافع الفهرى ، وبعضها الآخر اعتنقته على يد موسى بن نصير وعلى يد من أرسلهم من الدعاة الى هذا الاقليم ، وكذلك على يد الدعاة الذين أرسلهم الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز • واستكملت هذه الحركة على عهد الأدارسة الذين كانوا حكاما ودعاة فى نفس الوقت •

وعلى ذلك فان بنى صالح وقومهم من برغواطة كانوا مسلمين مثلهم مثل غيرهم من أهالى بلاد المغرب الأقصى ، ولم يرتدوا عن الاسلام بعد ذلك ، وما أتوا به من ديانة قيل عنها أنها مخالفة للاسلام لم تكن ديانة ، وانما كانت مذهبا من مذاهب الخوارج ، وهو المذهب الصفرى الذى كان قد اعتنقه كبيرهم ومؤسس دولتهم وهو طريف بن مالك ، واستمر أبناؤه من بعده يدينون بهذا المذهب الذى كان يعتبره المالكية من أهل السنة مذهبا يرمى بصاحبه فى هاوية الكفر والضلالة ، ومن ثم دمغوا هؤلاء القوم بهذه الصفة •

ولم ترد هذه الصفة الا عند ابن حوقل الشيعى الهوى ، وعنه أخذ البكرى المالكى السنى ، ولم يرد هذا القول بالردة وادعاء النبوة عند

غيرهما من المؤرخين والجغرافيين والرحالة المعاصرين لهذه الدولة التى امتد عمرها طويلا حتى بلغ أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، مما جعلنا وبعد مناقشة مستفيضة نذهب الى القول بأن القوم كانوا على الاسلام وكانوا على مذهب الصفرية من الخوارج لأسباب ذكرناها وفصلنا فيها القول تفضيلا .

ومن النتائج الأخرى التى يمكن الاشارة اليها هى أن بنى صالح لم يكونوا زعماء قبائل فقط وانما كانوا ملوكا توارثوا الحكم والسلطان فى دولة أقاموها فى تامسنا منذ عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م واستمروا يحكمونها حتى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، وكان الحكم متوارثا فى هذه الدولة ، يرثه الأبناء عن الآباء وخاصة فى أولاد صالح بن طريف بن مالك ، وظلت سلسلة ملوكهم متصلة حتى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م . وخلال هذه الفترة قام بنو صالح بالتوسع فى المناطق المحيطة بهم حتى وصلوا شمالا الى وادى بهت قرب فاس ، ووصلوا جنوبا الى ميناء آسفى ، مستغلين فى ذلك ضعف دولة الأدارسة وتفكك الأسرة الحاكمة لهذه الدولة ، وبذلك اتسعت دولتهم وصارت خطرا على القوى المجاورة ، ومن هنا جاء الصدام الذى وقع بينهم وبين هذه القوى .

وعلى ذلك فان الهجمات والغزوات التى تعرض لها بنو صالح لم تكن بسبب عقيدة دينية قيل انهم ابتدعوها وادعوها ، فلم تكن الحروب التى قام بها ضدهم الزيريون أو الزناتيون أو المرابطون حروبا من أجل الدين ، وانما كانت حروبا سياسية ، بمعنى أن هذه القوى لم تصطدم ببنى صالح من أجل تحويلهم الى الاسلام أو اعادتهم اليهم ، وأنهم كانوا مسلمين فعلا ، وانما كانت بهدف استعادة السيطرة على كل أنحاء المغرب الأقصى والقضاء على ما فيه من دول أو كيانات سياسية معارضة ، وكان بنو صالح من أشد وأقوى هذه الكيانات ، حتى انهم هزموا المرابطين مرة والموحدين مرات .

ونتيجة أخرى وأخيرة ، وهى أن بنى صالح لم يكونوا متقوقعين على أنفسهم فى اقليمهم الذى أنشأوا فيه دولتهم ، وانما اتصلوا بغيرهم من القوى المجاورة مثل الأدارسة وحكام سجلماسة وسكان الصحراء ، والأمويين فى الأندلس ، وتبادلوا معهم التجارة والبعثات الدبلوماسية ، مما أدى الى ازدهار دولتهم والى كثرة مدنهم حتى بلغت أكثر من أربعين مدينة بخلاف عدد هائل من القرى والضياع والبساتين التى ازدحمت بهـا تامسنا والتى أنتجت كثيرا من المحاصيل والسلع التى فاضت عن عن أهلهـا وصدرت الى الدول المجاورة سواء فى المغرب أم فى الأندلس وأوربا ، مما يدل على دور حضارى وسياسى كبير قام به بنو صالح كان جديرا بالاشارة والذكر . وان كنا قد فعلنا أو وفقنا فلا نبغى من وراء ذلك الا رضـا العلى القدير ، فعليه وحده قصـد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

بنو صالح فى تامسنا

١ — طريف
(١٢٥ — ١٣١ هـ / ٧٤٣ — ٧٤٨ م)

٢ — صالح
(١٣١ — ١٧٨ هـ / ٧٤٨ — ٧٩٤ م)

٣ — الياس
(١٧٨—٢٢٨هـ / ٧٩٤—٨٤٢م)

٤ — يونس
(٢٢٨—٢٧١هـ / ٨٤٢—٨٨٤م)

اليسع

معاذ

٥ — أبو عفير محمد
(٢٧١—٣٠٠هـ / ٨٨٤—٩١٢م)

٦ — أبو الأنصار عبد الله
(٣٠٠—٣٤١هـ / ٩١٢—٩٥٢م)

٧ — أبو منصور عيسى
(٣٤١—٣٦٨هـ / ٩٥٢—٩٧٨م)

أبو حفص عبد الله
(قتل عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م)

المصـــادر والمراجع

١ ـ المصـــادر العربية القديمة

الادريسى (ت ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م) : أبو عبد الله محمد بن عبـــد الله ابن ادريس الحمودى الحسنى المعروف بالشريف الادريسى •

١ ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، جزءان ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م •

الاصطخرى (توفى قبل عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) : أبو اسحاق ابراهيم ابن محمد المعروف بالكرخى •

٢ ـ مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العـــال ، مصر ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م •

البغدادى (ت ٤٣٩ هـ / ١٠٣٧ م : عبد القاهر بن طاهر البغدادى •

٣ ـ الفرق بين الفرق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعـــة الخامسة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

البكرى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) : أبو عبد الله بن عبد العزيز •

٤ ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م •

البلاذرى (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغـــدادى •

٥ ـ فتوح البلدان ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م •

الجزنائى (قرن ٨ هـ / ١٤ م) : أبو الحسن على .

٦ — زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٣٤٠ هـ/١٩٢٢م.

ابن حزم (٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) أبو محمد على بن أحمد .

٧ — جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٨ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، تحقيق د. محمد ابراهيم نصر ، د. عبد الرحمن عميرة ، عكاظ للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م

الحسن الوزان (٨٨٨ — ٩٥٧ هـ / ١٤٨٣ — ١٥٥٠ م) : الحسن ابن محمد الوزان الفاسى المعروف باسم ليو الافريقى .

٩ — وصف افريقيا ، جزءان فى مجلد ، ترجمة محمد حجى ، محمد الأخضر ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

الحميرى (قرن ٩ هـ/١٥ م) : محمد عبد الله بن عبد المنعم الحميرى .

١٠ — صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٥٦ هـ/١٩٣٧ م .

ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) : أبو القاسم محمد بن على النصيبى.

١١ — كتاب صورة الأرض (المسالك والممالك) ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

ابن خرداذبة (ت حوالى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) : أبو القاسم عبيد الله ابن عبد الله .

١٢ — المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) : عبد الرحمن بن محمد .

١٣ — تاريخ ابن خلدون (العبر والمبتدأ والخبر) ، الجزء الرابع والسادس ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .

الرقيق القيرواني (قرن ٥ هـ / ١١ م) : أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم .

١٤ — تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ، نشر رفيق السقطي ، تونس ، بدون تاريخ .

أبو زكريا (ت ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م) : أبو زكريا يحيى بن أبي بكر .

١٥ — سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا ، تحقيق اسماعيل العربي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ابن سعيد المغربي (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م)

١٦ — بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق خوان قرنيط خينيس ، طبع تطوان بالمغرب ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

السلاوي (١٣١٥ هـ / ١٨٩٥ م) : أحمد بن خالد الناصري .

١٧ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزء الأول ، طبعة القاهرة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٨ م .

الطبرى (ت ٣١٠ هـ/١٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بر جرير .

١٨ — تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) ، الجزء السابع ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعـارف ، مصر ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) : أبو القاسم عبـد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى .

١٩ — فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م .

ابن عذارى المراكشى (ق ٧ هـ / ١٣ م) : أبو عبد الله محمد .

٢٠ — البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول ، تحقيق ومراجعـة ج. س. كولان ، ليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد بن على .

٢١ — قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، البطعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ابن القوطيـة القرطبى (ت ٣٦٧ هـ / ١٩٨٠ م) : محمـد بن عمر بن عبد العزيز .

٢٢ — تاريخ افتتاح الأندلس ، مجريط ، ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .

لسـان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٢٧٤ م) :

٢٣ — الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تونس ، الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م .

المراكشي (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م) : عبد الواحد بن على التميمى .

٢٤ ـ تاريخ الأندلس المسمى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، المطبعة الجمالية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .

المسعودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .

٢٥ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الأول ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

المقدسى (٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م : محمد بن أحمد بن أبى بكر الشامى المقدسى المعروف بالبشارى .

٢٦ ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

المقرى (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) : أحمد بن محمد التلمسانى .

٢٧ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزء الأول ، المطبعة الأزهرية ، الطبعة الأولى ، مصر ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م .

مجهـول :

٢٨ ـ أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

اليعقوبى (ت ٢٧٢ هـ ٨٩٥ م) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى .

٢٩ ـ صفة المغرب ، مأخوذ من كتاب المعروف باسم البلدان ، طبعة بريل ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م .

٢ ـ المراجع العربية الحديثة

أحمد شلبي : (دكتور)

٣٠ ـ موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الجزء الرابع ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٨٤ م .

السيد عبد العزيز سالم : (دكتور)

٣١ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة) مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

جمال الدين سرور : (دكتور)

٣٢ ـ الحياة السياسية في الدولة العربية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

حسن ابراهيم حسن : (دكتور)

٣٣ ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الثاني ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م

٣٤ ـ تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة بدون تاريخ .

حسن محمود : (دكتور)

٣٥ ـ الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

حسين مؤنس : (دكتور)

٣٦ — فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

خالد الصوفي : (دكتور)

٣٧ — تاريخ العرب في أسبانيا (عصر المنصور الأندلسي) ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، بدون تاريخ .

٣٨ — دائرة المعارف الاسلامية ، الجزء السابع ، طبعة كتاب الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

زامباور :

٣٩ — معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ترجمة د. زكي محمد حسن ، د. حسن محمود وآخرون ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

شكيب أرسلان :

٤٠ — الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الجزء الأول منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .

عبد الرحمن علي الحجي : (دكتور)

٤١ — التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة ، (٩٢ — ٨٩٧ هـ / ٧١١ — ١٤٩٢ م) ، دار القلم ، بيروت ، دار القلم ، الكويت ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

محمد أسعد طلس :

٤٢ ــ تاريخ الأمة العربية : عصر الاتساق (تاريخ بنى أمية) ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، هـ / ١٩٥٨ م .

محمد بن عبد القادر الجزائرى :

٤٣ ــ تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

محمود شيت خطاب :

٤٤ ــ قادة فتح المغرب العربى ، الجزء الثانى ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

فهرس

رقم الايداع ٣٥٥٦ / ٩١

